سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (41)

رسائل ابن عَطِيَّة الكاتب

د. مُحَمّد مَجيد السَّعيد

بسم الله الرحمان الرحيم

ابن عَطِيَّة الكَاتب حَيَاتهُ وَرَسَائلهُ

الدكتور مُحَمّد مَجيد السَّعيد

حياته:

هو أبو جعفر أحمد بن جعفر بن محمد بن عطية القضاعي المراكشي(1)، مع اختلاف في اسم أبيه وجده حيث ورد في الإِحاطة "أحمد بن أبي جعفر بن محمد"(2)، وفي الحلة السيراء "أحمد بن جعفر بن عطية"(3) بإسقاط اسم جده (محمد)، ولد في مراكش سنة 517هـ(4)، وأصله القديم من قمرلة قرية بطرطوشة، ثم بعد من دانية(5)، ونسبه في قضاعة(6)، نشأ في كنف أبيه الكاتب الذي اشتغل في خدمة علي بن يوسف وابنه تاشفين(7)، وتتلمذ على يده، وعُدّ من شيوخه وكذلك أخذ عن طائفة كبيرة من أهل مراكش(8)، ولكن المصادر أغفلت ذكر أولئك العلماء الذين أخذ عنهم ابن عطية، ولكننا

يمكن أن نتصور حجم المعرفة التي بإمكان الإِنسان الراغب في العلم والمعرفة الحصول عليها إذا ترعرع في مدينة زاهرة كمراكش أواخر أيام المرابطين، حيث كانت تعد آنذاك منارة من منارات العلم في العالم الإِسلامي ومحطة جذب واستقطاب للعلماء والأدباء والشعراء والمفكرين، وعلى كل حال فإن أحمد بن عطية نبغ في الكتابة والإِنشاء منذ فترة مبكرة أهلته لنيل حظوة كبيرة لدى خلفاء المرابطين، فكتب عن علي بن يوسف بن تاشفين (ت 537هـ) وعن ابنه تاشفين (ت 539هـ) ثم عن ابنه أبي إسحاق إبراهيم(9)، وقد أغفل ابن خلدون وتابعه في ذلك السلاوي الإِشارة إلى قيام المترجم له بالكتابة لعلي بن يوسف وابنه تاشفين، ولكنهما أشارا إلى أن والد المترجَم له هو الذي كان يكتب لهما(10)، أما أحمد بن عطية فإنه تفرّد للكتابة لأبي إسحاق إبراهيم(11) ولازمه حينما وجهه والده تاشفين إلى مراكش خوفاً عليها من السقوط بأيدي الموحدين(12). ولكننا لا نستبعد أن يكلف أحمد بن عطية الكتابة مع والده لدى بلاط علي بن يوسف ثم لدى ابنه تاشفين، ومن بعد ذلك ملازمة ولي العهد أبي إسحاق إبراهيم الذي كان صغير السن لم يتجاوز

الثالثة عشرة من عمره حينما تولى مسؤولية الدفاع عن مراكش، فهو إذن بحاجة إلى من يقف إلى جانبه ويؤازره ويستشيره من الكتاب ذوي الخبرة والرصانة والحلم .. ولهذا فإننا نرجح أن يكون المترجم له قد تولى الكتابة أولاً في بلاط الخليفة علي وابنه تاشفين (وهو في عمر يناهز العشرين) لينال لديهما الحظوة والمكانة والثقة التي ترشحه ليشغل منصب الأمين والمساعد والمرافق لولي العهد أبي إسحاق إبراهيم.

وعندما أفلت دولة اللمتونيين بمقتل آخر ملوكها أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي في منتصف شوال من سنة 541هـ(13) وغدت مقاليد الحكم الموحدي ترفرف على خارطة الأندلس وشمال إفريقيا ... هجر أحمد بن عطية مهنة الكتابة الرسمية مبتعداً عن بلاطات الخلفاء وكبار القوم، وانزوى بعيداً ودخل في غمار الناس(14) "وقد أخفى نفسه في رماة العسكر وتنكر جهده وهو المعروف غير المنكر"(15)، ولكن الظروف كانت ترسم له قدره، وتأبى أن يعيش كما يهوى فكشفت عن جوهره وأزالت غبار الغمر عنه حينما انتصر جيش الموحدين على محمد بن عبد الله بن هود الماسي الثائر

برباط ماسة، يوم الخميس السادس عشر من شهر ذي الحجة سنة 541هـ، فطلب قائد الجيش "الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى كاتباً يكتب عنه بهذا الفتح إلى عبدالمؤمن إذ لم يكن عنده كاتب، فعُرّف بابن عطية، فأمر بحضوره فحضر وكتب عنه فأجاد وأتقن ما أراد، فقربه أبو حفص وأحسن إليه في جملته.(16)"، وفي الإِحاطة ذكر أن أبا حفص حينما استحضره وعرض عليه غرضه "تجاهل ابن عطية وظاهر بالعجز فلم يقبل – أي أبو حفص- عذره واشتد عليه، فكتب رسالة فائقة مشهورة، فلما فرغ منها وقرأها عليه اشتدّ إعجابه بها وأحسن إليه"(17)، وهكذا كانت هذه الرسالة مدخلاً وسبيلاً إلى بلاط خلفاء الموحدين، وكانت سبباً في تبوئه المجد والشهرة والمكانة، فقد ذكر ابن عذارى أن الرسالة بعد وصولها إلى الخليفة "قرئت في مجلسه فاستغربها الحاضرون من الطلبة والفقهاء والكتاب والنبهاء والشعراء، واستحسنها الخليفة لما فيها من وصف الحال بغاية الإِبداع وأنها أخذت من الفصاحة والبلاغة والتشبييه الغريب بالقلوب والأسماع، وأجمع البلغاء على إبداعها غاية الإِبداع، فكانت سبباً لسعده ورفعة قدره وجده،

فاستكتبه عبدالمؤمن إثر ذلك ثم علا قدره وذكره"(18)، وبعدما استُحْضر "قلّده عبدالمؤمن خطّة الكتابة، وأسند إليه وزارته وفوّض إليه النظر في أموره كلها فنهض بأعباء ما فوض إليه، وظهر فيه استقلاله وغناؤه"(19)، وإذا كانت براعته قد سودته وعظمت مكانته فإن ذلك كله يعود إلى رعاية البيت الموحدي له واهتمامه بصناعته وقدراته ومواهبه، ولذلك فإن ابن الأبار يجعله "صنيعة الإِيالة الحفصية – يعني أبا حفص عمر بن يحيى جدّ الحفصيين وأوائل أنصار ابن تومرت – ونشأة عنايتها الكريمة وهدايتها العتيقة، بها بهر بهاؤه، واشتهر ابتداؤه وانتهاؤه حتى ساق الأيام بل الأنام بعصاه واستوسق له أدنى الشرف وأقصاه"(20)، وهو في الحقيقة يعتبر أول وزير في دولة الموحدين، والدولة كما نعرف لا تزال فتية ناشئة لم تستكمل قواعدها، ولم تُرّسِ أسسها وتقاليدها، وبذلك غدا الميدان رحباً فسيحاً أمام المترجم له ليصول ويجول "فكان وزير حكمها بلا منازع كما كان مستشارها في تسيير أمور المدينة وتحريك دواليبها الإِدارية"(21)، كما يعدّ أول من جمع بين الوزارة والكتابة في عهدهم(22).

ولم يدفعه موقعه هذا إلى التكبر والتعالي والانحجاب عن الناس، بل سخّر وظيفته وقربه من الخلافة لخدمة الناس وقضاء مصالحهم وفكّ ضوائقهم، "فاشتهر بأجمل السعي للناس واستمالتهم بالإِحسان وعمّت صنايعه وفشا معروفه، فكان محمود السيرة، منجاب المحاولات، ناجح المساعي، سعيد المأخذ، ميسّر المآرب، وكانت وزارته زيناً للوقت، كمالاً للدولة"(23)، فسجلت له مواقف عديدة في نصرة المظلومين، والتوسط لهم في حلّ مشاكلهم، من ذلك إسعافه لأبي القاسم أخيل بن إدريس ووقوفه إلى جانبه عندما اتصل به بعد إطلاق سراحه من قبل المتغلب على رندة أبي الغمر بن عزون، وكتب له عن الأمر العلي إلى أبي الغمر برندة بصرف ماله والحفاوة بأهله وقضاء حوائجه وآماله، وظل في طبقته مقدماً مكرماً حتى ولي قضاء قرطبة ثم قضاء إشبيلية(24)، وكان له موقف إنساني آخر مع أبي عبدالملك مروان بن عبدالله بن مروان بن عبدالعزيز الشاعر، حيث بذل جهداً شخصياً في تخليصه من معتقله، فقد ذكر ابن الأبار وهو يتحدث عن ابن عبدالعزيز ما نصّه: "... وعند إشخاصه – أي مروان بن عبدالعزيز – مقبوضاً عليه إلى

ميورقة سجن في بيت مظلم مُطبَق، كان لا يعرف النهار فيه من الليل، وتُرك أوقاتاً دون غذاء ولا ماء، وأقام مسجوناً نحواً من عشرة أعوام وقيل اثني عشر عاماً ... ثم إنه تخلص من معتقله بسعي أبي جعفر بن عطية الوزير في ذلك، حتى خوطب إسحاق بن محمد بن علي بتسريحه، وقد ولّي ميورقة بعد قتل أبيه محمد وأخيه عبدالله في سنة ست، بل سبع وأربعين وخمسمائة، وجنح إلى الموحدين أعزهم الله فامتثل إسحاق ذلك ووجه به إلى بجايه ومنها توجه إلى مراكش، فسعى له ابن عطية في حضور المجلس السلطاني"(25)، ولكن هذا الموقف الإِنساني النبيل لم يقابل بمثله بل تحول أبو عبدالملك مروان إلى عدو لدود

لابن عطية، ونظم فيه شعراً يوغر فيه صدر الخليفة ضده، كما سنرى.

ومَنْ في مكانة ابن عطية ومنزلته لا بد أن يتحلق حوله الشعراء والأدباء تزلفاً وتقرباً واستفادة. ولكن المصادر التي تعرضت لسيرته لم تتناول هذا الجانب أو تتعرض له بشيء من التفصيل وإنما أوردت لمحات قليلة خاطفة، لا

تعبر – حسب اعتقادنا- عن الواقع، ومن تلك اللمحات ما ذكر من ملازمة الكاتب أبي بكر محمد بن نصر الأوسي له وهو القائل فيه يمدحه:

أبا جعفر نلت الذي نال جعفر عليك لنا فضل وبرّ وأنعم

ولا زلت بالعليا تسرّ وتُخبر ونحن علينا كل مدح يُحبر(26)

ويبدو أن هذين البيتين قد ولّدا الكآبة والحزن والشؤم في نفس ابن عطية، لأنهما يشيران إلى نهاية جعفر بن يحيى، التي هي القتل والصلب، فكأن أبا جعفر أحسّ بأن مصيره لن يكون غير ذلك(27).

ومن مدّاحيه شاعر الخلافة ابن حبوس(28)، فقد قال فيه قصيدة منها هذه الأبيات:

أتحسدني في أن أعيش كأنما أما تتقي أن يشرئب لنصرتي

وماذا الذي ينأى عليه وإنه وزير العلى عندي من القول فضلة

وما كنت أخشى مدة الدهر أن أرى إذا فسدت حالي ستصلح حالها

قوي إذا رام السماء ينالها لذو قدم أمّ النجوم نعالها

روّيتها في مَدّحِكم وارتجالها تميد بي الدنيا وأنتم جبالها(29)

ولم يتوفر لنا غير هذين النصين في مديحه، وهما – كما قلنا- لا يتناسبان والمكانة التي كان يشغلها المترجم له، ولعلي أرجع سبب اختفاء نصوصٍ مدحية أخرى قيلت فيه إلى النهاية الحزينة المؤلمة التي اختتمت بها حياته.

على كل حال فإن ابن عطية لم يتحدد دوره في عهد الموحدين بوظيفة الكتابة والوزارة بل كلف بمهمّات أخرى كبيرة وخطيرة، فقد شارك في فتح بجاية سنة 547هـ(30)، وبخطه وأسلوبه وصف فتحها برسالة "أبدع فيها غاية الإِبداع، وفي شرح هذا الفتح أبهج القلوب والأسماع، وبعث بها إلى سائر الأصقاع"(31).

كما أشرف على القضاء على فتنة أخوي المهدي بن تومرت حينما ثارا في فاس ودخلا مراكش فقتلا عاملها عمر بن تفراكين، ولقد أبلى ابن عطية آنذاك بلاء حسناً حتى تمكن من إخماد الثورة وتكبيل زعيميها .. ومهد الأمور بعد ذلك لوصول الخليفة الموحدي إلى مراكش(32).

وكانت له مشاركات بارزات، ودور فاعل وخطير في الحملات التي قام بها جيش الموحدين في الأندلس، فعلى يديه تمّ فتح المرية واستنزال النصارى المتحصنين فيها بالأمان صلحاً على العهد، بحسن محاولته(33)، بعد أن حوصرت لفترة طويلة من قبل الشيخ أبي حفص، ثم بعد ذلك، وبأمر من الخليفة عبدالمؤمن لازم أبا يعقوب بن عبدالمؤمن بعد تقديمه على إشبيلية، فتوجه معه – بعد انتهاء فتنة المرية- نحو إشبيلية لمنازلة الثائر بها علي الوهيبي بداية عام 552هـ(34)، وحينما توجه أبو سعيد بن عبدالمؤمن لمنازلة النصارى في غرناطة وجه إليه الخليفة عبدالمؤمن "الكبير أبا جعفر بن عطية صحبة السيد أبي يعقوب ابنه، فلحق به واتصل الحصار شهوراً سبعة، وبُذل الأمنُ لمن كان بها وعادت إلى ملكة الإِسلام، وانصرف الوزير أبو جعفر صحبة السيد أبي يعقوب إلى إشبيلية"(35).

وهكذا نجد أن دور ابن عطية السياسي قد توسع، فغدا يشارك في الأعمال الحربية والعسكرية مشاركة فاعلة ومؤثرة، فكان مقدماً وذا مكانة يحسب حسابها، فيصفه ابن الخطيب، في النص السابق، بلقب "الكبير"، وفي

حصار المرية يكون المفاوض باسم الدولة لحل الصعوبات العويصة مع المتحصنين من النصارى.

ولكن لم تستمرّ هذه المكانة وتلك المنزلة، فقد عدا عليه الدهر وقلب له ظهر المجن، وبدلت الأقدار سعادته شقاء، ورخاءه محنة ونكداً، "فطولب عند الخليفة عبدالمؤمن فأمضى عليه حكم ما رآه من الرأي في سلطانه، بحيث لم يجب استغاثته إلا عواء الذئاب، أو صدى تتسعر عليه نار الاكتئاب، فرويت الأرض من دمه"(36)، ومن متابعة المصادر التي تعرضت لنهاية ابن عطية يقف القارئ على جملة أسباب قد تكون أو يكون بعضها دافعاً لتبدل الخليفة وتغيره على وزيره وكاتبه، ومعاقبته بمثل تلك القسوة التي عوقب بها. وتلك العوامل والأسباب التي دفعت إلى نكبة ابن عطية هي:

1- إفشاؤه سرّاً أفضى إليه به الخليفة(37)، وكان ذلك السرّ يتعلق بحياة يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن الصحراوية وهو أخو زوجته. مما أغضب الخليفة فأمر بتقييد يحيى وسجنه إلى أن مات، وأمر بقتل الثاني على الطريقة التي سنتعرض لها.

2- تقريبه للمرابطين، وتعاطفه معهم، واتهامه باصطناع العدد الكثير منهم وانتشالهم من خمولهم(38). ولم يكتف بذلك بل تزوج ابنة أحد زعمائهم، فقد ذكر المراكشي في المعجب أن ابن عطية كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين التي تعرف ببنت الصحراوية، وهي أخت يحيى بن أبي بكر فارس المرابطين المشهور عندهم والمعروف ببلائه ومقاومته لحركة الموحدين في تلمسان وفي فاس وغيرهما(39).

3- كثرة الوشاة والحساد، فقد مرّ بنا ما وصل إليه ابن عطية من مكانة لدى الخليفة ومن سلطات واسعة لا حدود لها تجمع بين الكتابة والوزارة، ومن يكون بهذه المنزلة لا يخلو من الحساد والمغرضين والطامعين، ولقد خلا الجو لأولئك الأعداء عندما توجه ابن عطية إلى الأندلس في مهمة رسمية دامت شهوراً، "فوجدوا السبيل إلى التدبير عليه، والسعي به، حتى أوغروا صدر الخليفة، فاستوزر عبدالمؤمن بن عبدالسلام بن محمد الكومي، وانبرى – أي عبدالسلام- لمطالبة ابن عطية، وجدّ في التماس عوراته، وتشنيع سقطاته

وأغرى به صنايعه، وشحن عليه حاشيته، فبروا وراشوا وانقلبوا"(40)، ومما زاد في الطين بلة أبيات نظمها مروان بن عبدالعزيز "طليق ابن عطية، ومستَرَق اصطناعه"(41) كما يقول عنه ابن الخطيب، وهو ممن أحسن إليهم ابن عطية وخلّصه من سجنه في ميورقة، وكان هذا الشعر الذي نظمه فيه وألقاه في مجلس الخليفة يحرض فيه على قتله والإِيقاع به(42) من أقوى أسباب نكبته، ومن أهم دوافع قتله وفنائه(43)، وهذه الأبيات هي(44):

قل للإِمام أدام الله مدته إن الزراجين قوم قد وترتهم

وللوزير إلى آرائهم ميل فبادر الحزم في إطفاء نورهم

الله يعلم أني ناصح لكم هم العدو ومن والاهم كهم

قولاً تبين لذي لب حقائقه وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه

لذاك ما كثرت فيهم علائقه فربما عاق عن أمر عوائقه

والحق أبلج لا تخفى طرائقه فاحذر عدوك واحذر من يصادقه

وفي الأبيات تأكيد لما كان يتهم به ابن عطية من ميل إلى اللمتونيين وتعاطف معهم.

هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة دفعت الأمور لغير صالحه، وأوغرت صدر الخليفة عليه، وأثارت غضبه، فتغير حبه كرهاً، ورفعته انحطاطاً وسفلى.

"فحجب عند قدومه، ثم قيد إلى المسجد ... حاسر العمامة"(45)، ثم سجن هو وأخوه أبو عقيل عطية، وبعد معاناة وعذابات مريرات نفذ الأمر بقتلهما، "فأخرجا من سجنهما وحملا إلى جبل (درن) وقتلا بموضع تاجموت قرب الملّاحة، وذلك في التاسع والعشرين لصفر من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة"(46)، وهكذا انتهت حياة هذا الكاتب الأديب الوزير نهاية مؤلمة قاسية، وإذا كنا نتلمس أسباب قتله فإنه يصعب معرفة دوافع قتل أخيه عطية سوى رابطة الأخوة التي تجمع بين الاثنين. وفي فترة الاعتقال صدرت عن ابن عطية لطايف الأدب من

نظم ونثر، ولكن سيف القدر أمضى فلم تنجح ولم تدفع، ومن تلك المأثورات التي نفثت عنه أيام محنته أبيات نونية يقول في بعضها :

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج

من جاء عندكم يسعى على ثقة أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم

ونحن من بعض من أحيت مكارمكم وصبية كفراخ الورق من صغر

قد أوجدتهم أياد منك سابغة بان العزاء لفرط البثّ والحزن(47)

وعطفة منكم أنجى لي من السفن بنصره لم يخف بطشاً من الزمن

من دون منٍّ عليهم لا ولا ثمن تلك الحياتين من نفس ومن بَدَن

لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن والكلّ لولاك لم يوجد ولم يكن

وفي النثر كتب رسالته الرقيقة المؤثرة في الاستعطاف، التي حذا فيها حذو ابن زيدون في رسالته الجدّية، وسلك مسلكه، وقد كتبها عندما اصطحبهما أمير المؤمنين – هو وأخوه- مكبلين في حال ثقاف لزيارة قبر المهدي بن تومرت، وفيها يقول: "تالله لو أحاطت بي كل خطيئة، ولم تنفك

نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لآدم من السجود، وقلت إن الله تعالى لم يوح في الفلك لنوح، وبَريت لقرار ثمود نِبلا، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا ... ثم أتيت حضة المعلوم لائذا، وبقبر الإِمام المهدي عائدا، لقد آن لمقالتي أن تسمع، وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع أني مقترف وبالذنب معترف"(48).

وهذه الرسالة على ما فيها من توسل، ومن مغالاة ومن ترجّ وتذلل لم ترقق قلب أمير المؤمنين ولم تخفف من العقاب، فكانت صرخة في واد، وصوتاً محشرجاً لم يجد أذناً تصغي ولا قلباً يعي، فلم ينل أمنيته ولم يحقق غايته.

وبعد مقتله قيل إن عبدالمؤمن ندم على قتله وبكى عليه بالدموع(49)، وقال متحسراً: "ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه"(50).

هذه هي حياة ابن عطية، بل هذه صفحات موجزة مما سجلته كتب التراث عن هذا الأديب الناثر، وهي في الحق تمثل صفحة من حياة دولة الموحدين السياسية وما كانت تعج به قصورهم من حسد وفتن وما تحاك بها من مؤامرات تطيح برؤوس وأعناق.

أما حياته في جانبها الاجتماعي والعائلي فلا يعرف منها سوى نتف قليلة، وكل الذي نعرفه أن والده قد قتل على يدي عبدالمؤمن(51)، وأنه كان متزوجاً من بنت أحد زعماء المرابطين، المدعوة "بنت الصحراوية"(52)، وأن لديه أبناءً نستدل عليهم من قوله في أحد أبيات نونيته السابقة:

وصبية كفراخ الورق من صغر لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن

وهي إشارة إلى مجموعة عيال، والمقري يذكر أن هذه القصيدة كان قد بعثها ابن عطية مع ابن له صغير إلى الخليفة أمير المؤمنين(53)، ويذكر المراكشي في المعجب أن لأبي جعفر أحمد بن عطية حفيداً يدعى "أبا القاسم عبدالرحمن بن محمد بن أبي جعفر" وكان فقيهاً متفنناً(54)، وعلى كل فإننا لا نملك أخباراً أو تفاصيل عن حياته الخاصة سوى هذه النتف التي لا تغني ولا تبلّ. وهكذا انتهت حياة ابن عطية وهو ما يزال في ذروة عطائه ونضوجه وانطوت صفحته على عمر لم يتجاوز السادسة والثلاثين، فقد كان مولده سنة 517هـ. أما أخوه عطية فقد قتل وعمره 23 سنة(55).

وفي خاتمة حياة هذا الرجل ينقل ابن عذاري المراكشي عن الرواة الثقات "أنه لم يبلغ مبلغ ابن عطية أحد من الكتاب ولا الوزراء المتتقدمين في جده ومجده وكتابته وفصاحته ونصحه وخدمته وسلوكه طرق المكارم واجتنابه للمحارم والتذاذه بقضاء المسائل وتلطفه في توصيل الرغباء من مضطر وسائل"(56).

أما المقري فيشبه نهايته ومصيره بنهاية ابن الخطيب ومصيره، حيث يقول عن ابن عطية: "وبالجملة فالرجل كان نسيج وحده، رحمه الله تعالى وسامحه، وقضية لسان الدين تشبه قضيته، وكلاهما قد ذاق من الذلّ بعد العزّ غصته، وبدل الدهر نصيبه من الوزارة وحصّته، بعد أن اقتعد ذِروة الأمر ومِنصّته"(57).

أدبــه:

دخل أبو جعفر بن عطية ديوان الأدباء بفضل رسائله النثرية التي كتبها عن مخدومه عبدالمؤمن الموحدي منذ أن فتحت أمامه أبواب القصر الخلافي في

مراكش، ولم يعرف عنه غير النثر من نتاج أدبي سوى قصيدته النونية في استعطاف الخليفة عندما غضب عليه وأودعه السجن، وهي القصيدة التي كانت صرخة في واد أو نفخة في رماد – كما يقولون- فلم تحقق غرضها، ولم تُنجِ صاحبها من القدر المحتوم، والأجل المكتوب، وقد سبق أن أشرنا إليها فيما مضى من صفحات(58)، كما أوثر عنه بيتان رقيقان من الشعر قالهما في السجن وهما:

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا وها أنا في ليل من السّخط حائر

فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى(59) ولا أهتدي حتى أرى للرضى صبُحا

والشعر وليد المحن، تفجّره الأزمات والمواقف الصعبة، وأديبنا ابن عطية الذي عانى الكتابة فترة طويلة من الزمن يدرك أن للشعر خصوصية وتأثيراً في النفوس قد لا يحققهما النثر مهما رقّ ولان وعذب، فامتطى الشعر على ندرة امتطائه وقلة ممارسته إياه، فأبدى تمكناً من صهوته وقدرة على

معالجته وتطويعه لأداء غرضه، ولكن النونية هي بيضة الديك التي لم تتكرر، فقد عاجله الحين، كما سبق توضيحه.

وعلى كل حال فإننا لن نقف عند أبياته الشعرية، ولا نتعرض لها في دراستنا لأدبه، وإنما سنفصل القول في نثره وما كتبه من رسائل ذاتية أو ديوانية للتعرف إلى مكانته الأدبية وقدراته في هذا المجال الذي هو، في الحقيقة، ميدانه الرئيس وحلبته التي برّز فيها، ونال بسببه حظوة كبيرة ومكانة رفيعة استحقها عن جدارة.

رسائلـه:

توفرت لدينا مجموعة من رسائله – هي ليست كل نتاجه كما هو واضح من النصوص – ولكنها تمثل قيمة أدبية يمكن الركون إليها في دراسة نثر ابن عطية وتقويم مكانته الأدبية من خلالها، وعند الرجوع إلى تلك الرسائل

يتضح أنها جميعاً من المراسلات الديوانية، وليس فيها غير قطعة واحدة في غرض الاستعطاف، كتبت إلى السلطان ولم تصدر عنه، كما هو الحال في المراسلات الأخرى، فهي تتعلق بسبب بالمكاتبات السلطانية وإن لم تندرج تحت لوائها، ومن باب التجوز أن نتعرض لها ونقف عندها لما تستحقه من عناية ولما تقوم عليه من عناصر عاطفية وإنسانية قد لا تتوافر في نتاجه الرسمي – الذي سنفصل القول فيه فيما بعد .

رسالته الاستعطافية:

من خلال نظرة فاحصة في رسالته الاستعطافية التي كانت بحق وليدة ظرف ألمّ به، ومحنة أصابته، والتي وجهها إلى وليّه ومخدومه أمير المؤمنين عبدالمؤمن بن علي يلتمس فيها العفو والغفران ويستعطف فؤاده، ويستدرّ صفحه، والنص قطعة من رسالة لم تصل إلينا كاملة فهي مبتورة المقدمة خالية من اسم من وجهت إليه عاطلة من الرسوم المعروفة والمعهودة على عهدهم في كتابة الرسائل، ولكننا نعرف من حشو الرسالة أنها موجهة إلى

الخليفة عبدالمؤمن، وأنها كتبت إبّان محنة ابن عطية وفي ذروة غضب الخليفة عليه، وأنها اقترنت بزيارة أمير المؤمنين قبر الإِمام المهدي بن تومرت، وكان الخليفة قد استصحبه – وأخاه أبا عقيل عطية– معه منكوبين بحال ثقاف(60). ولكن هذه الرسالة، بما أنها وليدة المعاناة وحصيلة التجربة الشخصية، تمتاز بخاصية وجدانية ذاتية، تعبر عن نفسية أزعجها شبح الموت، وهزهز من رصانتها وقوتها هزّات القيود وأصوات الأصفاد، وهي تختضّ مع كل حركة أو نقلة يقوم بها – هو وأخوه– في مكوثهما أو تنقلهما. فلا غرابة أن نلمس مثل هذه المغالاة في رسالته، وهذا التذلل في طلب العفو واستدرار الشفقة، وهذا الحشد من ذكر جسام الذنوب التي سجلها، فكأنه يقول: إنه لو اقترف كبار الجرائم وجسام الذنوب كالتي ارتكبها عصاة التاريخ وعتاته ومتمردوه فكانت وصمات سوداً على جبين مرتكبيها، لم تمحها الأيام ولا الدهور، ثم كان له أن يلجأ إلى قبر الإِمام المعلوم المهدي المعصوم لنال الشفاعة والمغفرة والعفو .. فكيف به، وهو لم يقترف ذنباً ولا جرماً.

وعلى كل حال، فإن الرسالة أو المتبقي منها تنمّ عن ثقافة واسعة كان يمتلكها أديبنا، تسترفد التاريخ والأديان بشكل خاص في تدعيم غرضه وتعزيز ما يهدف إليه من توصل إلى نتائج هي في محصلتها انتزاع العفو والغفران من الخليفة. ولا تغرب عن بالنا، ونحن نقرأ سطوراً من الرسالة، رسالة ابن زيدون الجدية التي كتبها هو الآخر في السجن موجهة إلى أبي الحزم بن جهور(61)، بل إن الرسالتين تلتقيان في أكثر من فكرة، ففي كلتيهما نجد فكرة تمرد إبليس وتكبره عن السجود لآدم، وعدم طاعة أمر الله في ذلك تقف على رأس الكبائر، يقول ابن زيدون: "وما أراني لو أني أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت"(62)، والفكرة نفسها تتردد في قول ابن عطية: "تالله لو أحاطت بي كل خطيئة .. حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لآدم من السجود"(63)، وبعد نص ابن زيدون السابق مباشرة يأتي تمرد ابن نوح على أبيه وامتناعه عن الركوب معه في السفينة، وهو ذنب كبير آخر اقترفه إنسان بحق والده، وجحود ابن لأب كان يدعوه إلى الخير والنجاة، فيقول ابن زيدون: "وقال لي نوح: "اركب معنا" فقلت: "سآوي إلى جبل

يعصمني من الماء"، وفي نص ابن عطية يأتي ذكر نوح هو الآخر مباشرة بعد ذكر عصيان إبليس لأمر الله في السجود لآدم. ولكن ابن عطية لم يذكر جحود ابن نوح وعصيانه لوالده، وإنما ذكر ما هو أعظم وأكبر من ذلك، وهو ذنب من ينكر إيحاء الله تعالى لنوح ببناء الفلك، وهذا بحد ذاته كفر جسيم، يقول ابن عطية: "وقلت: إن الله تعالى لم يُوحِ في الفلك لنوح".

وجاء في الرسالة الجدية قوله: " .. وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة"، والفكرة نفسها تأخذ ثوباً آخر في قول ابن عطيّة: " .. وقلت: إنّ بيعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة".

وعندما يقول ابن زيدون: " ... وضحيتُ بالأشمط الذي عنوان السجود به"، ويقصد بالأشمط عثمان بن عفّان .. وقصة مقتله، فإن ابن عطية يكررها مستخدماً اللفظ نفسه (الأشمط)، حيث يقول في رسالته: " ... واعتقلت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة ..."، وفي رسالة ابن زيدون إشارة إلى قتل علي بن أبي طالب بيد عبدالرحمن بن ملجم، فيأخذ ابن عطية الحدث نفسه فيشير إليه بقوله: "وغادرت الوجه من الهامة خضيباً"، والرسالتان تلتقيان في

الجو العام الذي يسودهما وطريقة البناء، فهما تعتمدان أصلاً على مقدمات تحشد الذنوب وكبائر الأعمال لتصل بعد ذلك إلى أن كاتب الرسالة الذي هو ابن زيدون في الأولى ثم ابن عطية في الثانية لو اقترف هذه الذنوب كلها أو بعضها ثم طلب العفو والمغفرة من سيده لنالهما ولحصل عليهما.

فابن عطية في رسالته كان يحذو حذو ابن زيدون وعلى نسقه يبني حتى "ليخيل إلى الأديب – من أول وهلة- أنها قطعة منها أو خلاصة عنها"(64)، وهو لا يبعد أن يكون مطلعاً عليها بل حافظاً لها متأثراً بها، ولكن ابن عطية كان في رسالته أكثر ليونة وحسن جرس وسجع.

وقبل أن ننتهي من هذه القطعة النثرية نود أن نشير إلى أن بعض المصادر أوردتها مستقلة عن الشعر وبعضها الآخر جاء بها مسبوقة بأبياته النونية في الاستعطاف(65)، التي سبق أن أشرنا إليها، والنصان - النثر والشعر- في كل الأحوال يعالجان موضوعاً واحداً وغرضاً واحداً ويهدفان إلى مرمى واحد، وقد صدرا عن فؤاد مكلوم ورجل مظلوم يمرّ في ظرف قاهر قاس.

فالنصان إن لم يكونا رسالة واحدة فهما بحكم النص الواحد حيث يكمل أحدهما الآخر.

رسائله الديوانية:

يعد كتاب "مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية" الذي اعتنى بإصداره الأستاذ إ. ليفي بروفنسال من أهم المصادر وأغناها في النثر الديواني الموحدي، حيث ضمّ الكتاب سبعاً وثلاثين رسالة ديوانية، ولكنه يعدّ أكثر أهمية فيما يتعلق بنثر أديبنا ابن عطية، فقد اشتمل الكتاب على ست عشرة رسالة نسبت إلى المترجَم له.

ومن خلال تدقيق تلك المجموعة من الرسائل يتضح للمدقق أن بعض تلك الرسائل التي نسبت إليه ليست في الحقيقة له، فقد جاءت الرسالة العاشرة حسب ترتيب الناشر ممهّداً لها بما نصه: "لعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية"(66)، وهذا القول يشعر بالشك في نسبتها إلى كاتبنا، وقد وردت الرسالة نفسها كاملة في كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي دون ذكر أو إشارة

إلى كاتبها(67)، ولكننا نرجح كونها له وذلك لاعتبارات عديدة منها أنها كتبت بتاريخ السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة(68)، ولم يكن في هذا التاريخ كاتب للخليفة عبدالمؤمن سوى صاحبنا، بل كان في هذه الفترة يعيش أوج عزّه، وزهو مكانته، ثم إن الرسالة من حيث الرسوم والتدرج الشكلي في مقدمتها وحشوها وخاتمتها تتفق مع رسائله الأخرى، وكذلك الأسلوب والصياغة وبناء العبارة كلها تشير إلى طريقته وتقترب من قلمه وصياغته.

ومثلها جاءت الرسالة الحادية عشرة مجهولة النسبة، لأنها جاءت مبتورة الرأس فلم يعرف كاتبها ولا اسم المرسل ولا تاريخ كتابتها، ولكن السياق يظهر أنها كتبت عن أمير المؤمنين عبدالمؤمن بن علي إلى جهة ما من بلاد الموحدين يخبرهم فيها بثورة أخوي المهدي بمراكش(69)، وما حلّ بهما وبأنصارهما من عقاب. وقد أشارت الرسالة إلى أن الموحدين قد قبضوا على الشقيين المذكورين، ولكونهما يتصلان بالإمام المهدي المعصوم برحم فقد حكم عليهما بالبقاء الإجباري في مدينة مراكش ثم بعدها سرّحا "واختير لهما سكنى فاس

– حرسها الله- بجميع أهليهما وبنيهما لينزلوا بقرارتها خير منزل"(70)، ولكنهما ما لبثا – حينما شعرا أن الفرصة مواتية لهما- أن ثارا وأيدهما خلق من فاس ثم توجها مع مؤازريهما إلى مراكش فقتلا عاملها الشيخ أبا حفص عمر بن تفراجين(71)، ولكن أمرهما لم يطل، فقد تمكن الموحدون من القضاء على ثورتهما وحزّ رأسيهما ورؤوس الفتنة من أنصارهما(72). وعند تتبع أخبار ثورة أخوي المهدي في كتاب البيان المغرب نجد أن تفاصيل خروجهما عن طاعة عبدالمؤمن مذكورة، كما روتها الرسالة وقد أشار المراكشي إلى أن الخليفة وجه ابن عطية إلى الثائرين، فكان له دور متميز ومؤثر في القضاء على الثورة المذكورة(73)، وكان ذلك في ذي القعدة عام ثمانية وأربعين وخمسمائة(74)، وبعد القضاء على الناكثين ودخول الخليفة مراكش أمر الوزير الكاتب أبا جعفر بن عطية بالكتب إلى جميع البلدان، فكتب بما لا يجال معه من الفصاحة والبلاغة في ميدان(75).

وتأسيساً على ما سبق من أحداث تاريخية، ومن توافق بين ما جاء في الرسالة وما جاء في البيان المغرب، وفي غيره من المصادر ومما صرح به

المراكشي من أن الخليفة أمر أديبنا بالكتابة في الحدث المذكور إلى البلدان يتحقق لدينا أن الرسالة المذكورة هي من إنشاء ابن عطية.

ووردت الرسالة التاسعة عشرة منسوبة إليه، ولكن تاريخ كتابتها يشير إلى أنها كتبت بعد وفاة ابن عطية، حيث ذكر أن تاريخها في ذي القعدة سنة أربع وخمسين وخمسمائة(76)، وهي وإن كانت تحذو حذو رسائله الأخرى من حيث الشكل والرسم فإنّ الأحداث التي تتحدث عنها الرسالة تؤيد أنها كتبت بعد وفاته، فقد ورد ذكر لحصار المهدية – ودعاء الكاتب بأن ييسر الله فتح هذه المدينة، حيث قال: "فإننا كتبناه إليكم ... بظاهر المهدية- فتحها الله"(77)، أي أنها لا تزال قيد الحصار.

وكذلك أشارت الرسالة إلى أمر الخليفة عبدالمؤمن بن علي باختطاط مدينة بجبل طارق(78)، وفي ختامها يسير إلى فتح (قفصة) ومخاطبة عرب قابس(79)، وعند الرجوع إلى هذه الأحداث يتأكد لدينا أنها كتبت في التاريخ الذي ذكرته الرسالة في ذيلها، فقد ورد في كتاب المن بالإِمامة أن الخليفة عبدالمؤمن قد بعث بكتابين إلى إشبيلية مبشرين بالفتوح، أحدهما مؤرخ في

الثاني من ذي الحجة من عام أربعة وخمسين وخمسمائة وقد كتب بظاهر المهدية(80)، وأعتقد أن هذه الرسالة التي لم يحدد ابن صاحب الصلاة نصها هي رسالة أخرى بعثها الخليفة من ظاهر المهدية أثناء حصاره لهذه المدينة التي تمّ فتحها فيما بعد – وكما ورد في الخطاب الثاني الموجه إلى إشبيلية أيضاً- بتاريخ عاشوراء من عام خمسة وخمسين وخمسمائة(81)، كما أن ابن صاحب الصلاة يشير إلى صدور كتاب من الخليفة إلى إشبيلية أيضاً بتاريخ ربيع الأول من عام خمسة وخمسين وخمسمائة يتضمن الإِشارة إلى فتح فقصة(82)، ومخاطبة عرب قابس بني سليم بالتوحيد وطلب الأمان(83). ولا ننسى أن جواز الخليفة عبدالمؤمن إلى الأندلس ونزوله جبل طارق بعد فتح المهدية كان في شهر ذي القعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة(84).

أي أن جوازه كان بعد أن أنجز السيد الأعلى أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ما أمره الخليفة به من بناء مدينة جبل طارق(85)، وجميع هذه الأحداث تؤكد أن الرسالة المذكورة هي ليست لابن عطية وإنما لغيره من

الكتاب، ويرجح الدكتور التازي "أن منشئها أحد شخصين إما ابن المرخي أو القالمي، فقد كانا معاً منشئين في هذه الفترة(86)، ولا يخلو ما في تاريخ تدوين الرسالة ومكان صدورها وما تذكره المصادر من تواريخ لوقوع الأحداث التي وردت فيها من اختلافات واختلاطات تحتاج إلى وقفة لتخريجها وتوضيحها، ولا نرى أن المجال هنا يسمح بمثل ذلك(87).

ونسبت الرسالة الثالثة والعشرون من ترتيب الكتاب إلى ابن عطية وقد وصفها بروفنسال بأنها رسالة الفصول(88)، والذي أثار شك نسبتها إليه أنها مؤرخة في 3 ربيع الأول عام 556هـ أي بعد وفاة ابن عطية بسنوات، والرسالة في "إقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات"(89)، وقد فصلت القول وأطالت في معالجة موضوعها الإِصلاحي في "إحياء معالم السنة وإحكام أمراسها"(90)، وليس في مضمونها ما يستدل على أنها له، لأن موضوعها عام وغير خاص، فالرسائل التي تناولت مثل هذه القضايا الدينية العامة كثيرة في فترة الموحدين، وفي كتاب نظم الجمان رسالة سميت أيضاً برسالة "الفصول" وهي منسوبة إلى ابن عطية،

ومضمونها يتناول الإِصلاح والتوجيه، وأنها "جامعة لأنواع من الأوامر، الباقية فخراً لمن تفاخر، خلدت من مآثره – يعني عبدالمؤمن- السَّنية، وأوامره السنية، ووصاياه الحكيمة، وآدابه العلمية، ما يقر معه بفضله كل سامع لها وآثر"(91). فالرسالتان تتشابهان من حيث المضمون والموضوع، ولكننا لا نؤيد نسبة الاثنتين إلى ابن عطية، وترجيحنا أن الرسالة الثانية هي له، فقد جاء في حشوها أن تاريخ كتابتها هو السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة(92) أي أنها كتبت في حياة ابن عطية، كما أن تسميتها برسالة الفصول جاءت من نصّ في حشوها "..فأمرُنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل، وفي كافة أقطار الموحدين نافذ عامل"(93)، وقد نبه محقق كتاب نظم الجمان(94) إلى أن هذه الرسالة هي المقصودة بما ذكره عبدالمؤمن في رسالته إلى طلبة صنهاجة تاسغرت عندما قال: "وتصلكم طي كتابنا هذا نسخة كتاب خاطبنا بمثلها كل جهة من جهات الموحدين – وفقهم الله- فيما قرب وبعد، وحملناها من الوصايا ما نرجو أن يعين على أمر الله ويعضد، ورأينا قضاءها إليكم لتنالوا من بركاتها ما تجدون أثره قريباً"(95)،

ويفهم من هذا النص أن رسالة الفصول كانت إعماماً من السلطة إلى جميع الجهات والأصقاع التي تخضع للموحدين، ويؤكد هذا الفهم نص آخر ورد في البيان المغرب يقول: "في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة أمر أبو محمد عبدالمؤمن بالكتب للبلدان لما استقر بمراكش مريحاً للنظر في مصالح المسلمين وقوام أمر الموحدين وكان رفع له أن المظالم قد ظهرت والقبالات في الأسواق اشتهرت فكتب أبو جعفر بخطه عنه كتاباً إلى الطلبة والأشياخ والحفاظ يأمرهم فيه بالمعروف والنهي عن المنكر وعن سفك الدماء، ... ووجه منه نسخاً كثيرة إلى بلاد الأندلس والعدوة"(96)، وهو بذلك يعني – بلا شك- رسالة الفصول آنفة الذكر.

أما الرسالة التي أوردها بروفنسال في مجموعه وسماها وهماً برسالة الفصول فهي من النماذج التي حاكت أسلوب ابن عطية وطريقته وأفكاره أيضاً وسارت على منواله، ولكنها ليست له لما ورد في تاريخ كتابتها من صراحة ووضوح تشيران إلى أنها كتبت بعد وفاته. كما أن تسميتها برسالة الفصول وهم لا أساس له من الصحة.

ولقد غدت رسالة الفصول لابن عطية التي أشرنا إليها سابقاً، نموذجاً يحاكى من قبل الكتاب وخاصة حينما يكلفون بتدوين مراسلات في الموضوع ذاته، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن النماذج التي جرت على مجراها – غير ما سبق ذكره- رسالة كتبها أبو الحسن بن عياش عن الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن في الثالث من شهر رمضان سنة 561هـ(97).

وتأسيساً على ما سبق يكون لابن عطية أربع عشرة رسالة بعد استبعاد رسالتين له هما الرسالة التاسعة عشرة والرسالة الثالثة والعشرون من ترتيب بروفنسال.

وكتاب "مجموع رسائل موحدية" يعدّ بحق المصدر الأهم لنثر ابن عطية الديواني، بل هو المصدر الوحيد الذي يضم هذا العدد من رسائله. وليس فيما عداه سوى رسالة الفصول في كتاب نظم الجمان. أما الرسالة الواردة في كتاب "صبح الأعشى" وهي غير منسوبة إلى أحد فإنها نص الرسالة العاشرة ضمن كتاب مجموع رسائل موحدية التي رجحنا نسبتها إلى كاتبنا(98).

ومن المؤسف أننا لم نجد في المصادر الأخرى التي تعرضت لابن عطية نثراً سوى رسالته الاستعطافية التي وجهها إلى عبدالمؤمن بن علي(99)، ورسالته الماسية التي كتبها عن أبي حفص في موقعة وادي ماسة، والتي أورثته المجد(100)، أما عدا ذلك فإن مصادر أخرى كانت تكتفي بوصف ابن عطية بالأدب والكتابة وتغفل تثبيت أي شيء من نثره.

وسنبقى في أمل انجلاء بعض النصوص من كتاباته ورسائله القيمة من خلال اكتشاف ونشر مخطوطات تضم شيئاً من تراثه الثرّ والكثير، الذي يمثل فترة مهمة من تاريخي الموحدين.

رسوم رسائلـه:

لما كان تكوين ابن عطية الثقافي والعلمي قد تمّ في العصر المرابطي فهو – بلا شك– متأثر بطريقتهم في الكتابة، ولكنه ومن خلال تحمله مسؤولية الكاتب الأول للخليفة لم يكتف بما تعلمه في العصر السابق، بل بدرت منه أساليب ورسوم جديدة متطورة عما هو عليه الحال في الرسائل الديوانية

المرابطية، ولقد كان لمكاتباته وصيغ بناء رسائله تأثير كبير على جيل الكتاب الرسميين من بعده، حتى غدت سنناً يحذو حذوها الآخرون، مما سنتعرض له فيما بعد. وعلى كل حال فإن الرسائل الديوانية – وكما هو معروف- كانت تتقيد بأساليب ورسوم معروفة تكاد أن تكون مقننة ثابتة، فهم ليس كما يذكر أحد الباحثين من أن الأندلسيين لم يحتفلوا بمطالع الرسائل وخواتيمها مثل احتفال المشارقة بها(101)، وقد أوردنا منها ستة أنماط في بحثنا عن المكاتبات الرسمية في عهد الموحدين، وثمانية أنماط للرسائل الموجهة من الأمراء والحكام وَالقضاة إلى الخلفاء(102)، وعند العودة إلى رسائل ابن عطية نجد أنها كانت كلها – سوى الرسالة الاستعطافية والماسية- من الرسائل الديوانية الرسمية التي صدرت من مركز الخلافة وبتوجيه من الخليفة نفسه، وعند التأمل في الرسم الذي اتبعه ابن عطية في بناء رسائله نلمس أنه كان يعتمد صيغة واحدة في إطارها العام مع اختلاف بسيط يحدث في ترتيب عناصرها ورسومها، وهذه الصيغة تقوم على الشكل التالي(103):

- أن تبتدئ الرسالة بالبسملة والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر لقب المكتوب عنه مقروناً بالدعاء له بما يليق بمقامه، وتأتي بعد ذلك بذكر اسم المكتوب إليه أو صفته وقد تشير إلى مكان الإِقامة، ثم تأتي بما يناسبه من دعاء، وتعقبه بتحية الإِسلام ثم بالبعدية(104)، فالحمد لله والصلاة على نبيه والسلام عليه، ثم الترضية على الإِمام المعصوم المهدي المعلوم، ثم تنتقل بعدها إلى فقرة جديدة يبدأها الكاتب بقوله: "وكتابنا هذا" أو ما يشبهه، مشفوعاً بالدعاء بمعنى الكتابة، ويذكر بعدها اسم الحضرة التي صدرت الرسالة عنه، ولا ينسى الدعاء للحضرة بما يناسب ويليق ... وقد يسجل تاريخ كتابة الرسالة قبل أن يلج الموضوع الأساس للرسالة التي تختم عادة بتحية الإِسلام. وخير مثال على هذه الصيغة رسالته المسماة برسالة الفصول التي جاء نصها كاملاً في كتاب نظم الجمان(105)، حيث جاءت مقدمتها على الصورة التالية:

"بعد البسملة والصلاة:

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره، وأمده بمعونته، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة، وفقهم الله تعالى واستعملهم بما يرضاه.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد.

فالحمد لله، وهو اللطيف الكريم .. وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم ولأمته المخلصة في عليين كتابها المرقوم والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم الذي بعثه رحمة للمؤمنين، ... وكتابنا هذا. وكتب الله تعال لكم كل رأفة ورحمة وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمه – من الحضرة العلية بتينمّل- حرسها الله تعالى- في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وقد وصَلْنا – والحمد لله- وجناح الرحمة مخفوض ... إلخ"(106).

ومن الملاحظ أن هذه الرسالة هي الوحيدة التي ذكر ابن القطان أنها مبتدئة بالبسملة والصلاة على النبي، أما بقية رسائله الديوانية فقد ابتدأت بذكر لقب المكتوب عنه الذي هو أمير المؤمنين.

وقد أشار القلقشندي في كتابه صبح الأعشى إلى هذا اللون من المراسلات وأوجزه بقوله: "كان الرسم فيها أن يقال: "من أمير المؤمنين فلان" ويدعى له بما يناسبه "إلى فلان ..." ويدعى له بما يليق به، ثم يؤتى بالسلام ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم والترضية عن الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي، ثم يؤتى على المقصود ويختم بالسلام، والخطاب فيها بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه"(107).

وإذا كانت الرسالة السابقة موجهة إلى الطلبة بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان دون تخصيص فإن مكاتبات أخرى قد ورد اسم المكتوب إليه

صراحة، كما في قوله من رسالة: "من أمير المؤمنين ... إلى الشيخ الفقيه القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج ..."(108).

أما تاريخ كتابة الرسالة فإننا نلاحظ أن ابن عطية كان يغفل ذلك في بعض مكاتباته(109)، ولكنه كان يورد التاريخ في حشو الرسالة في بعضها الآخر– وكما هو ملاحظ في رسالة الفصول التي سبق الاستشهاد بها، أو أن يأتي به في ذيل الرسالة(110)، والطريقة الأخيرة ظلت قائمة متبعة فترة طويلة بعده.

ويبدو أن ابن عطية قد استفاد مما كان معمولاً به من رسوم وصيغ إبّان عصر المرابطين، ونقله إلى الديوان الموحدي، وأضاف إليه رسوماً جديدة اقتضتها طبيعة المرحلة، وأوجدتها فلسفة العقيدة والسياسية الموحدتين، ويمكن تلخيص ذلك بما يأتي:

أ- من الرسوم التي نقلها ابن عطية عن المرابطين فسنّها في نهج المكاتبات الموحدية وأقرت من بعده فغدت أسلوباً موحديّاً هي:

ذكر اسم المكان الذي صدرت عنه الرسالة.(111)

ذكر تاريخ كتابة الرسالة في حشو المكاتبة(112)، وقد انتظم هذا الرسم عند ابن عطية في رسالة الفصول والرسالة الثالثة من المجموع فقط.

استهلال الموضوع الأساس للرسالة، بعد ذكر الرسوم التمهيدية التي تحدثنا عنها، بلفظ – كتابنا-(113)، وقد أضاف إليه ابن عطية دعاء للمرسل إليه – مشتقّاً من فعل الكتابة، بدلاً مما كان معمولاً به أيام الرابطين وهو الدعاء بشكل عام.

ب- أما الرسوم التي يعتبر ابن عطية سباقاً في إضافتها إلى رسوم المكاتبات الموحدية والتي غدت صيغاً معروفة يحذو حذوها الكتاب من بعده فهي:

ذكر اسم المُرسِل.

ذكر اسم المرسل إليه.

تحية الإِسلام ثم التحميد والبعدية.

الصلاة على الرسول.

الترضية عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم.

ومما سبق تتضح معالم الرسالة الديوانية في عصر الموحدين وتتحدد رسومها وعناصرها، وهي على كل حال معالم تجمع بين ما أخذ عن المرابطين وما أضيف إليه في بدايات عصر الموحدين، والفضل بجملته يعود إلى صنعة ابن عطية وابتكاراته، وقد طبعت الصبغة العطيوية، بشكل عام، مكاتبات الكتاب الديوانيين من بعده طوال عصر الموحدين، وإذا كانت هناك إضافات تذكر على رسائلهم الديوانية فهي لا تعدو أن تكون إضافات هامشية وغير جوهرية، ولا أعتقد أن مؤلف المعجب كان يقصد هذه الرسوم والصيغ التي اعتمدتها مكاتباتهم حينما تحدث عن أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عيّاش (ت619هـ) كاتب الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن وابنه محمد وابن ابنه يوسف بقوله: "ولم يكتب لهم – أي للموحدين– منذ قام أمرهم مَن عرف طريقتهم وصبّ في قالبهم وجرى على مهيعهم، وأصاب ما في نفوسهم كأبي عبدالله بن عياش هذا، فإن القوم لهم

طريقة تخالف طريقة الكتاب، ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة"(114)، لأن ابن عطية كان أسبق منه إلى توظيف تلك الرسوم والصيغ في مكاتباته وأقدم في استعمالها(115)، ولكني أرى أن المراكشي كان يقصد بمقولته السابقة شيئاً آخر. ولقد وهم أيضاً في الموضوع نفسه أحد الباحثين(116) فجعل الفضل كلّه لابن عياش في تقعيد رسوم كتابة الرسائل الديوانية الموحدية، فالذي نعرفه أن ابن عياش هذا قد اعتمد الرسوم العطيوية نفسها ولكنه خفف رسائله من بعضها ولم يلغها أو يأتي ببدائل عنها(117).

مضامين رسائله الموضوعية والفنية:

لقد أشرنا فيما مضى إلى المكانة الرفيعة التي حظي بها ابن عطية في بلاط الموحدين، والدرجة المرموقة التي نالها لدى أمير المؤمنين عبدالمؤمن ابن علي حتى غدا كاتبه ووزيره في آن واحد، وهما مكانة ودرجة لا يبلغهما أحد أو ينالهما محظوظ إلا إذا كانت لديه من المؤهلات العلمية والثقافية ومن

المقومات الشخصية والذاتية ما تعجب مخدومه وتستحوذ عليه، ويبدو أن ابن عطية كان جديراً بذلك، مؤهلاً لينال تلك الحظوة ويطول تلك الصهوة حتى "عدّ أول وزير للدولة الموحدية بالمعنى الصحيح، فألقيت إليه مقاليدها، فكان وزير حكمها بلا منازع، كما كان مستشارها في تسيير أمورها وتحريك دواليبها الإِدارية"(118). وإذا كان كتاب الدواوين "حريصين على نوال رضا رؤسائهم وزيادة الحظوة لديهم، متوسلين إلى ذلك بما يقدمونه من إبداع في مكاتباتهم، ومن قدرات على فهم ما يدور في خاطر السلطان أو الأمير أو المخدوم، وما يرغب في التعبير عنه وإيصاله إلى الآخرين ممن تكتب إليهم الرسائل"(119)، فإن ابن عطية قد ساعدته على ذلك مؤهلاته الذاتية وثقافته الواسعة ومعارفة الجمة، إضافة إلى ما كان يتمتع به من حنكة ولباقة وذكاء وسرعة بديهة وكياسة وخلق سمح ومكارم، وقد ألمحنا إلى ذلك في حديثنا عن حياته، وإذا كنا هنا نريد أن نكتب عن جوانب رسائله الفنية فإن ذلك يقتضي الوقوف عند جملة النصوص التي أثرت عنه لنستخلص منها ما يكشف عن ومضات فنية رائعة أو صور بديعة ظريفة، صاغها قلمه المبدع وهو

يكتب عن أمير المؤمنين إلى رعيته في موضوعات سياسية أو دينية أو اجتماعية.

ولقد كان ابن عطية مُعْجِباً في كلّ ما كتبه، لأنه – وأمثاله من كتاب الدواوين- يجاهدون من أجل الوصول إلى تقدير مخدومهم وإثارة إعجابه بما يكتبون "ولذا فإننا نقدر أن الرسائل الرسمية قمة في الجودة الفنية، لأن منشئها يوظف كل قدراته الفنية والعلمية والثقافية وما يمتلكه من معارف لإِخراج رسائله في أبهى رونق وأحسن شكل، وألطف لفظ وأعمق معنى وأوضح دلالة لتثير أولاً دهشة مولاه، ولينتزع، ثانياً، إعجاب المجلس الذي ينصت إلى تلك الرسائل سواء في الحضرة التي تكتب فيها أو الحضرة التي تكتب إليها.(120) فكانت رسائله بحق مشتملة على قدر كبير من الصنعة والعناية متوشحة بالمحسنات البلاغية، والرونق الشكلي الذي يضفي عليها جمالية مميزة، ولكن مثل هذه الرسائل الديوانية لا يمكن وصفها بصدق التعبير ولا بعفوية التدفق لأنها لا تصدر عن وجدان كاتبها أو تنقل عواطفه وأحاسيسه الذاتية، فهي تكتب عادة عن غيره ولأنها تتناول موضوعات لا

تصح فيها العواطف والانفعالات، ولا تكمن فيها المشاعر أو الوجدانات، فهي غالباً ما تكون في مجالات الوعظ والإِرشاد والنصيحة أو مجالات التهديد والوعيد أو الإِخبار عن حدث أو خطب من حرب أو فتح أو غيرهما .

وعلى كل حال فإن ابن عطية يعد "مؤسس الترسل السلطاني في دولة الموحدين بل حتى لما بعدها من الدول المتعاقبة"(121)، وكان أسلوبه بليغاً سهل المأخذ منقاد القريحة سيال الطبع"(122)، يستند فيه إلى قاعدة عريضة تقوم على ما يمتلكه من ثقافة متنوعة ومن خبرة وتجربة وباع في ميدان الأدب اكتسبها عن أبيه الذي كان يشتغل في صنعة الكتابة الديوانية من قبل(123)، وفي دراسة مضامين رسائله لا بد أن نقف عند موضوعاتها وفنونها وما ارتكزت عليه من ثقافة دينية أو تاريخية أو بلاغية أسلوبية، وهو ما سنفصل القول فيه:

أ- موضوعات رسائله:

تدور موضوعات رسائله في مجالات محددة بحكم طبيعة الهدف الذي تكتب من أجله الرسالة، فما دامت الرسائل السلطانية تصدر عادة عن مركز الخلافة أو توجه إليه فمن البدهي أن تحتوي على ما يخص السياسة والحكم والتوجيه ومخاطبة الرعية، وأن تعالج قضايا تهمّ الخليفة أو الحاكم.

ومن نظرة إلى رسائل ابن عطية نجد أن رسالته الماسية التي بعثها عن أبي حفص من وادي ماسة إلى الخليفة عبدالمؤمن كانت تحمل البشرى بالنصر على الثائر الماسي المدعي للهداية (محمد بن عبدالله بن هود) ومصرعه والقضاء على ثورته، وفي الموضوع ذاته كانت رسالته الخامسة حسب ترتيب بروفنسال في كتابه مجموع رسائل موحدية، وهي في الحق موجهة إلى طلبة سبتة يخبرهم – على لسان الخليفة- بوصول كتابهم عن غزوة أسطولهم على النصارى بمدينة المرية. وفيها تخليص لما وقع بين المسلمين والنصارى في البحر من قتال عنيف، والإِشادة ببطولة المقاتلين المسلمين، ثم حمد لله وشكر له على هذا الفتح ...

ويأتي بإشارات إلى أمور أخرى تطرقت إليها رسالة طلبة سبتة الموجهة إلى الخليفة عبدالمؤمن.

وكانت الرسالة التاسعة من المجموع نفسه تتحدث عن غزوة الموحدين في البلاد الشرقية وظفرهم على الأعراب بناحية سطيف، ويقصد بهم قبائل بني هلال .. "واستمر القتل فيهم والاتباع لهم من أول ذلك اليوم المبارك إلى آخره ولم يسر الموحدون فيه –على ما ذكروه- إلا بين إبل راتعة وسائمة، وخدور على عمدتها منصوبة قائمة ... حيّ إلى جنب حي وشيء متصل بشيء مسيرة أربعين أو خمسين من الأميال. فبأعداء الله ما بهم من قتل مفن، وانهزام مبعد وحمام مدن، ... غشيتهم تلك الفواشي الغوافر، فذل لها المأمور منهم والآمر، وحاق الويل بهلال بني عامر ..."(124).

وتضمنت رسالته الحادية عشرة من المجموع المذكور إخبار الولاة والشيوخ من الموحدين بالقضاء على ثورة أخوي المهدي (عبدالعزيز وعيسى) بمراكش وما أنزل بهما وبأنصارهما من عقاب شديدة(125): "وكان حكم الله فيهم

حزّ رؤوسهم من أجسادها، وتصيير نفوسهم إلى سوء مصيرها ومهادها"(126).

أما رسالة الفصول فقد تضمنت قوانين العدل والسياسة والرياسة – كما يقول ابن عذاري(127)، وفيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقيد بأحكام الدين، في معالجة بعض الخلل والمفاسد التي وصل خبرها إلى الخليفة، من ذلك مثلاً: جرائم القتل من غير حق والاعتداء على المسلمين وسلب أموالهم، ومظالم بعض الولاة في ضرب الناس بالسياط، وكذلك أمر الضرائب والمغارم والمكوس، وما يتعلق بتزويج المرأة المطلقة دون استبراء(128)، ومحاربة شرب الخمر ومراقبة مواضع بيع "الرُّب"(129) واعتصاره للتأكد من كونه لم يبلغ حدود التحريم، وتعرضت أيضاً لما يقع فيه الرقاصون من حملة البريد من استغلال للناس "يحلون بأفنية الناس حلولاً شنيعاً يكلفونهم مؤناتهم تكليف المجرم"(130).

ثم تختم الرسالة بالدعوة إلى معاملة الرعية بالشفقة والحنان والرفق والعدل.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الرسالة تأخذ أهميتها مما جاء فيها من إشارة صريحة إلى اتباع رسم جديد اعتمده الخليفة عبدالمؤمن في مراسلاته، وهو إثبات العلامة الموحدية بخط يد الخليفة نفسه، فقد ذكرت الرسالة ما نصه: "ولما كان هذا الأمر عندنا – وفقكم الله تعالى- أهم أمر وأوجبه وأحق ما أدناه الحق وقربه ... رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا، وها هي قد رفعت الأشكال رفعاً بيّنا، وأرتكم فرط اهتبالنا حقّاً مبينا"(131)، وقد أصبحت هذه العلامة إشارة مميزة إلى مراسلات الخلفاء من بعده. وفي عودة إلى موضوع الوعظ والإِرشاد وتوجيه الحكام بالحِفاظ على أحكام الدين والتمسك بقانون الإِسلام في التعامل مع الرعية .. ودعوة الرعية إلى الالتزام بآداب الإِسلام وتعاليمه وتجنب ما يغضب الله ورسوله، نلمس أن هذا الموضوع يستحوذ على معظم رسائله بشكل عام ولكنه ينفرد في بعض من رسائله بشكل خاص، مثلما هو في رسالة الفصول السابقة، ومن تلك المكاتبات التي عالجت الموضوع المذكور: رسالته الأولى ضمن ترتيب بروفنسال في مجموع رسائل موحدية والرسالة الثالثة التي تشير إلى رسالة

طيها – هي أشبه بالإِعمام على أقطار الدولة كافة – تحتوي على وصايا وتوجيهات. وإننا لنؤيد هنا ما ذهب إليه الدكتور محمود علي مكي من أن المطوي هو رسالة الفصول، لأن تاريخ كتابة الرسالة الثالثة كان بعيد كتابة الفصول بأحد عشر يوماً(132).

والموضوع مثله في الرسالة السادسة الموجهة إلى المشيخة بقرطبة، والرسالة الخامسة عشرة التي وجهها الخليفة إلى طلبة سبتة.

وقريب من الغرض السابق رسائل كتبت إلى بعض القبائل أو الأمراء الحاكمين ممن لم يستسلموا للموحدين وظلوا مجانبين للتعاون معهم أو الانضواء تحت لوائهم، تدعوهم على لسان الخليفة إلى الإِيمان بدعوة الموحدين وتحبب إليهم تعاليمها وتكبر في نظرهم مؤسسها وقائدها الذي هو الإِمام المهدي، وهذه الرسائل هي: الرسالة الرابعة في مجموع رسائل موحدية وقد وجهها أمير المؤمنين إلى الشيخ الأجل أبي زكريا يحيى بن علي يعني ابن غانية، فقد جاء فيها في أمر المهدي ومكانته قوله: "وهذا الأمر – وفقكم الله، هو أمر المهدي– رضي الله عنه– حقّ فتأمل، ومع معالمه الجلاء فلا ظنٌّ ولا

تخيل، والمهدي- رضي الله عنه- قد بشر به النبي - ص- في غير ما حديث، وظهرت علاماته وآياته في قديم مزامره وحديثها، ودلّ على اسمه وزمانه، وفعله ومكانه بأدلة رفعت الأشكال والتعسف، فأتى – رضي الله عنه- كما نعت النبي – عليه السلام- ووصف ... إلخ"(133).

وقد تكرر الغرض نفسه في رسالته السابعة التي صدرت عن الخليفة إلى الشيوخ والأعيان وجميع من بقسنطينة، والرسالة العاشرة التي بعثها إلى الشيخ أبي عبدالله محمد بن سعد، يعني ابن مردنيش، حيث تضمنتا – كالسابقة- الدعوة إلى الإيمان برسالة المهدي واعتناق مذهب الموحدين الذي جاء "لإِراحة جميع أهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم ويعرفونه من أسباب المظالم"(134).

ويتضمن فحوى الرسالة الثانية عشرة تصنيف الموحدين إلى ثلاث طبقات يبين قدر كل واحد منهم، وهي بعد مقدمة طويلة في النصح والوعظ ينتقل الكاتب إلى عرضه الأساس فينصّ على التالي: "وابتدئ بتطوير الناس على طبقات ثلاث يعرف بها كلّ واحد قدره ويقف بها عند حدّه .. فالطبقة الأولى

هم السابقون الأولون الذين بايعوا المهدي – رضي الله عنه- وصحبوه وغزوا معه وصلّوا خلفه والذين شاهدوا البحيرة وباؤوا بفضلها .. ويتلو هذه الطبقة من آمن بهذا الأمر، ودخل في هذا الحزب وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران، والطبقة الثالثة من فتح وهران إلى هَلُمّ جرّا"(135).

وتعالج رسالته الثالثة عشرة مسألة ولاية العهد، فتركز على أن تسمية محمد ابن أمير المؤمنين ولياً للعهد جاءت تلبية لرغبة المشايخ والطلبة والعشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية(136)، ولم يكن مخططاً لها من قَبلُ أو مرسوماً في نفس الخليفة "فاعلموا – وفقكم الله- بأن ذلك ليس له في نفوسنا عقد سابق، ولا نظر لاحق، ولا طرق الضمير من أنبائه طارق"(137)، وتأتي الرسالة الرابعة عشرة لتؤكد الغرض السابق نفسه وتشير إليه(138)، ولكنها تضيف إلى تسمية ولي العهد أموراً أخرى تتعلق بتعيين بعض أبناء الخليفة ولاة على بعض الأصقاع الموحدية، وتَأتّي ذلك كله استجابة لرغبة أبناء البلاد وجمهور الموحدين، فمنهم مثلاً أبناء تلمسان "فسأل طلبة تلمسان وأعمالها ومن حضر من أهل حواضرها وبواديها أن

يكون لهم من هذا الأمر المتجرَّد والشأن المسعد حظ يفوزون بنعماه ويحوزون منه أزكى قسمة وأنماه، بأن يستصحبوا من الإِخوة المذكورين – يعني أبناء الخليفة- من يكون إليه استنادهم ويدور عليه اجتماعهم واعتمادهم ... إلخ"(139)، ومثله تفعل غمارة وسبتة(140). وكل هذه الأمور أتت "على غير قصد منا ولا ذكر، بل على وجوه يُعلم بالضرورة أنها نشأت لأحيائها، وظهرت دون مقدمة لأعيانها"(141)، وتأكيد الكاتب في رسالتيه السابقتين أن اختيار ولي العهد والولاة من أبناء أمير المؤمنين بطلب من الرعية وبإلحاح من الجمهور يقوي المقصود ويعزز الغرض في كسب تأييد الآخرين وموافقتهم وبالتالي مبايعتهم.

هذه هي جملة الأغراض التي عالجتها رسائل ابن عطية وهي في الواقع متفرعة عن الإِطار العام الذي هو الرسائل الديوانية، ومعبرة عما يتطلبه ويطلبه المقام الخلافي من شؤون واهتمامات.

ب- خصائصها الفنية:

لما كانت الرسائل الديوانية – وكما ذكر سابقاً- تصدر عن حضرة الخليفة وتتحدث بلسانه، فلا بد أن يبذل منشئها في صياغتها جهداً كبيراً وأن يسخّر كل إمكاناته اللغوية والأسلوبية والثقافية ليخرجها بأحسن صورة وأجمل رونق، وأن ينمقها بالألفاظ الرقيقة وبالعبارات الرصينة، معززاً إياها بما يختزن في ملكته من التراث الديني والأدبي وما يعرفه من أخبار وتاريخ وقصص ومواعظ وحكم. وقد يميل أحياناً إلى الجزالة والبسالة في ألفاظه وعباراته، حتى يعطي كل مقام ما يستحقه من مقال، فيجيد التعبير في كل ما يطلب منه، ويسيل قلمه بلا تعثر ولا تردد أو إحجام، ولكون كتاب السلطة "يعالجون موضوعات منوعة ويعبرون عن توجهات الحكام ووصاياهم وآرائهم في مختلف القضايا والشؤون، فإن طبيعة عملهم تتطلب منهم بالضرورة ثقافة موسوعية وخزيناً من المعارف والمعلومات التاريخية والدينية والأدبية وغيرها ليكون الكاتب قادراً ومتمكناً من تناول تلك الموضوعات والتعبير عنها بوضوح ودقة تحققان هدف المكتوب عنه وغايته، وتصيبان ما في نفسه"(142)، ومن وقفة مع ابن عطية ندرك أنه كان يتمتع بكل ما تتطلبه

هذه الصنعة من قدرات ذاتية ومن مواهب وصفات، كما نلمس بجلاء أن نثره الديواني كان يتسم بخصائص فنية معينة، ويتحلى بسمات ومزينات أسلوبية أو لفظية مميزة تعكس ما تزخر به ذاكرته من فيض المعارف التراثية بشتى صنوفها وألوانها، ويمكن أن نحصر ما تحلت به رسائله من خصائص فنية بالنقاط التالية:

أ- كان ابن عطية يمتلك قاعدة ثقافية عريضة، تزخر بشتى ألوان المعرفة، وفي المقدمة منها معلومات دينية واسعة من حفظ لآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم وتفسير لهذا وذاك وما يتعلق بهما من أخبار وقصص وسير، وقد تجلت ثقافته تلك بوضوح في رسائله حيث استخدم ذلك التراث في نسيج بنائه النثري، وعدّ عنصراً مهمّاً من عناصر مقومات رسائله الديوانية، لأن غرض الموضوع والهدف من تلك المكاتبات يقتضيان بل ويستلزمان حضور مثل تلك المعارف، وقد أحسن ابن عطية في استخدامها وتوظيفها، فجاءت قوة في الفكرة ورصانة في الصياغة وجودة في التعبير عما يراد التعبير عنه، وهنا تظهر الحنكة والذكاء في

الاستعانة بالتراث وتسخيره أداة طيعة لخدمة غايات الكاتب. ومن خلال رسائل ابن عطية نقف على استشهاده بنصوص من آيات القرآن الحكيم أو أحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، ففي رسالة الفصول أكثر الكاتب فيها من الاستناد إلى الاستشهادات الدينية لما تستوجبه طبيعة موضوع الرسالة، لنسمعه يقول: "والشقي من أتى مليماً، باكتساب الكبائر ملوماً "وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً"، والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين، ويحب الرفق ويحل به كنفه الأمين، وفي الحض على ذلك يقول وهو أصدق القائلين: "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (143)، ثم يستطرد الكاتب قائلاً في الصفحة نفسها: "وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء وبرأفته كشف عنهم العماء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء""(144).

وفي مكان آخر من الرسالة نفسها يقول: "ولا يمرون بآذانهم ما يفعل الله تعالى بأمثالهم ولا يحذرون " يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ"(145)، وقبل هذا النص أورد حديثاً نبوياً بقوله:

"والنبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول: "من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول: يا رب: سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة؟" (146).

واستخدم نصوصاً أخرى من حديث النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال وهو يتحدث في رسالة الفصول عن تحريم الخمر: "الحلال بيّن والحرام بيّن ولقضايا الشرع نظام، قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته عليه وسلم: "ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام" (147).

وقد يأخذ الكاتب ابن عطية جزءاً من النص القرآني أو النص النَبوي أو يأخذ معناهما فيضمنه مكاتباته ليسند فكرة أو يقوي رأياً أو يعزز نسيجاً أو يرصن لغة. فمن ذلك قوله: "فتزودوا، فإن خير الزاد التقوى"(148)، وهذا مجزوء من الآية الكريمة: "وَمَا تَفۡعَلُوا مِنۡ خَيۡرٍ يَعۡلَمۡهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيۡرَ الزَّادِ التَّقۡوَى"(149). وقال في رسالة أخرى: "وألفته الأهواء وحجت المناصحة فيه الأسماع، ونسي كلٌّ ربه فأنساه نفسه"(150)، فقد استخدم

الكاتب روح الآية الكريمة وحافظ على معناها لأن نص الآية يقول: " وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ"(151)، وفي عبارة أخرى يأخذ جزءاً من آية فيحسن الأخذ والحفاظ على روحية النص القرآني ومعناه، يقول ابن عطية: "وترددت عقولهم المعقولة بين نفاثة في عقدها"(152)، وهو معنى مأخوذ من القرآن الكريم في سورة الفلق: "ومِنْ شرِّ النَّفّاثَاتِ فِي الْعُقدِ"(153)، وعندما يقول في موضع آخر: "حصحص الحق الذي لا يدفع، وظهرت الأصول التي يبنى عليها ويرفع"(154) فإن جملة حصحص الحق، في الحقيقة، مقتبسة من قوله تعالى في سورة يوسف: "قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ"(155). وجاء في رسالته الماسية قوله: "وأملى الله لهم ليزدادوا إثماً"(156)، وهو بلا شك قد نظر إلى قوله تعالى: "إنَّما نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ"(157)، ويأخذ قوله: "ونسلت إليه الرسل من كل حَدَب"(158) من الآية الكريمة: "حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ"(159)، ولقد أكثر من الاقتباس من الآي الحكيم في رسالته الماسية هذه(160).

ومن اقتباساته من روح الحديث الشريف وألفاظه ما جاء في رسالة له: "ما أراهم طلبه فرضاً، وكونه كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً"(161)، فهو واضح الاستفادة من الحديث الشريف الذي يقول نصه: "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً"(162).

وفي رسالة أخرى يشير ابن عطية إلى حديث نبوي دون أن يذكر نصه فيقول: "والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور، ونستعيذ به سبحانه من الحور"(163)، والحور كما ذكر محقق نظم الجمان هي "النقصان"، وفي مقولة ابن عطية إشارة إلى الحديث الشريف: "نعوذ بالله من الحور بعد الكور" أي من النقصان بعد الزيادة أو نعوذ به من فساد أمرنا بعد صلاحها"(164)، فالكاتب لم يضمن الحديث بنصه وإنما جاء بمعناه وفكرته مستفيداً منهما في معالجة موضوعه الذي هو التحذير من مفاسد أصحاب البريد وما يوقعونه من مظالم على الرعية.

وفي موضع آخر يستفيد الكاتب من جزء من الحديث الشريف كقوله: "وسروا بصالح عملكم وبشروا ويسروا – كما قال عليه الصلاة والسلام- ولا

تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا"(165)، ونص الحديث هو: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا"(166)، فكان الكاتب متصرفاً بالنص ولكنه مستفيد مما يحتويه من مضامين وأفكار.

أما في مجال استخدام التراث الأدبي والتاريخي في بناء الرسائل الديوانية فلم يكن واضحاً مثلما هو في التراث الديني الذي أشرنا إليه آنفاً، ولكنه كان بيّناً وواضحاً في رسالته الاستعطافية، ومع ذلك فقد كان ابن عطية يمتح من مخزونه ما أمكن، ليضمّن مكاتباته منه، أمثالاً شائعة أو أقوالاً مأثورة أو ألفاظاً نادرة معبرة، وليشير، ولو بطرف خفي، إلى معارفه واطلاعه وثقافته، فمن تلك الاستخدامات للمأثور الأدبي قوله: "وأقبل جميع من ذكرناه لكم ... بقضهم وقضيضهم"(167)، والمثل العربي يقول: "جاء القوم قضهم بقضيضهم"(168).

ويقول في رسالة أخرى: "فلا متردم من القول يستلحق فيه الدرك والاستثناء"(169)، وأرى أنه مأخوذ من قول شاعر الجاهلية عنترة العبسي:

"هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم"

وفي رسالته الماسية – وكما لا حظنا آنفاً- التي كانت سبب شهرته ورفعة مكانته تضمين كثير من الثقافة الأدبية، وكأنه كان بهذه الرسالة يمتحن قدراته ويعصر قريحته الأدبية والفنية ليظهر إمكاناته الدفينة، ويشير إلى منزلته التي كان ينعم بها في بلاط المرابطين، فلنسمعه يقول فيها:

"وتقلب في النعم أكرم مُنقلب، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكَرَب:

فتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشُب(170)

فالبيت الشعري من قصيدة أبي تمام المشهورة

"السيف أصدق أنباء من الكتب   ....".

وفي قوله: "عقد الكرب" تذكير بقول قديم، بل مثل سائر يقول نصه: "شدّ عقد الكرب"(171).

ومثله ما جاء في قوله: "وتساقطوا على وجوههم كتساقط الذباب"(172)، حيث اقتبس من المثل المعروف فكرته وجزءاً من ألفاظه "يتساقطون تساقط الذباب على الشراب"(173).

أما قوله: "لبسوا الناموس أثوابا وتدرعوا الرياء جلبابا"(174) فهو مستفيد من قول الشاعر أبي بكر أحمد بن محمد الأبيض في هجاء الفقهاء:

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب يَخْتِل في الظلام القاتم(175)

ب- اهتم ابن عطية بالصياغة الشكلية وجمالية التناسق والتوافق بين الجمل وما يتولد عن الحروف من جرس أو صوت، ولذا فقد أعطى أديبنا للسجع وللسجع الداخلي أهمية فائقة، لأنه يدرك مقدار ما يخلفه السجع من تأثيرات في نفوس السامعين، كما عني بالمحسنات اللفظية والشكلية الأخرى من وسائل وأساليب بلاغية معروفة كالجناس والطباق والتشبيه والكناية إلى غير ذلك.

وعند تتبع رسائله وما تضمنته أو اعتمدته من صيغ وأساليب بلاغية لتحسين الشكل أو تزيينه فإننا نلاحظ أن نصوصه كانت تراوح في سجعها بين السجعتين والثلاثة حتى تصل إلى اثنتي عشرة سجعة، يقول في إحدى سجعاته الثنائية: "ولتعلموا – وفقكم الله وسلك بكم سبيل هداه- أن قصد هذا الأمر الكريم، في الحضور والعموم، إظهار دين الله تعالى على ما أوجب وفرض، وجهاد من نكب عن سبيله وأعرض، وقطع آثار الظلمة كثيرها وقليلها، وإجراء الأمور كلها على منهجها الشرعي وسبيلها"(176)، أما سجعته الطويلة فمنها قوله: "ولحين ما عاين أعداء الله قصد الموحدين على مضاء الاعتزام، وباشروا آثار الارتباط الإيماني والالتزام، راموا فحيل بينهم وبين المرام ... إلخ "(177)، حيث أورد اثنتي عشرة سجعة ميمية مسبوقة بالألف .. أما ما بين النوعين السابقين فهو كثير في رسائله ويمكن اكتشافه من القراءة الأولى للنصوص.

وكان يفرع في سجعاته فيأتي مثلاً بمجموعة من الجمل مسجوعة على حرف ثم ينتقل إلى سجعة أخرى ليعود بها إلى السجعة الأولى نفسها، وهكذا

يلون ويغير في وقع الأصوات ليخلق منها موسيقى قريبة للشعر تشد السامع وتنشط القارئ أو المتلقي .. من ذلك مثلاً: "أما بعد فالحمد لله الذي تكفل بوعده الصادق، إتمامه وإنجازه، وتحصّل لحزبه الآخر السابق، إعلاؤه وإعزازه، وتقلقل في عدوّه الفاسق المارق، قهره وإعجازه، والصلاة على محمد نبيه الأمين، الذي أظهر على حقه المبين، إظهاره وإبرازه، والتفّت على أمره المكين، صدور العلاء وأعجازه، وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين، الذي تجلى بهم تعيّن الإِسلام وامتيازه، والرضوان المستدام عن الإِمام المعصوم، المهدي المعلوم، موضح سبيل الرشاد حين عمّ استغواء الشيطان واستفزازه، ومُنجح أسباب الارتياد إذ تيسّر اغتنام المطلوب وانتهازه"(178)، ونرى في القطعة السابقة أن ابن عطية قد فرع ونوع في تقفيته حيث بنى القطعة على لزوم ما لا يلزم فالتزم بالحروف (الألف والرّاء والهاء) ثم كان يأتي بسجعة أو سجعتين ليعود بعدها إلى تقفيته الأولى(179). ويمكن أن نلاحظ في القطعة نفسها استخدام الكاتب التقفية الداخلية في عباراته الأولى من النص. وهو أسلوب يضفي جمالية شكلية صوتية على النثر، منه قوله: "نحمده بما يتعين من

حمده الواجب، ونصلي على محمد نبيّه العاقب"(180)، ومنه أيضاً في رسالة أخرى: "فأدوا من حق هجرتهم البرّة ... ما قلدوه، ونالوا من خير الزيارة والبيعة .. ما اعتمدوه"(181)، وهذا النوع من أنواع السجع هو ما يطلق عليه الكلاعي اسم المغصن(182)، ولزوم ما لا يلزم أسلوب عرفه الشعر ونظم فيه الشعراء متباهين بمقدرتهم اللغوية، ثم انتقل إلى النثر فغدا الكتاب يعتمدونه في استعراض لغوي، لكنه لا يخلو من جمالية فيما إذا أحسن استخدامه، وروعي عدم الإِكثار منه، لئلا يتحول إلى تصنع ممجوج ثقيل. ولابن عطية – كما لاحظنا قبل قليل- اصطناع لهذا اللون البلاغي في رسائله الديوانية رغبة منه في إضفاء جمالية عليها وإظهار مقدرته اللغوية وتفننه الأدبي .. من أمثلة استخدامه للزوم ما لا يلزم قوله: "واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة إتيان هذا الأمر العزيز في محلّ قيامه، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله وارتفاع أعلامه، وهجر الأوطان والقطّان لطلب الرضوان به واغتنامه، فكيف به وقد أظلتكم في عقر دياركم رايته، وتجلت بين أظهركم آيته، وتأكدت في الوجوب عليكم واللزوم لكم ولايته"(183).

وإذا كان لزوم ما يلزم يدعو إلى القسر والتكلف مهما يحاول الكاتب تخفيفه وعدم الإِكثار منه، فإن سجعهم بشكل عام يأتي "عفو الخاطر غير متكلف ولا مجتلب لذاته، فهو ذلك اللون الذي يحسن به الإِيقاع وترتاح إليه الأسماع"(184).

ومن اهتماماته الشكلية التي تولي جانب الصوت والجرس أهمية خاصة ما نلمسه في مقدار الجهد الذي يبذله الكاتب من أجل إعطاء إنشائه رونقاً خاصاً وطعماً مميزاً، متكئاً على قدرات في الصنعة البلاغة التي تعني بجانب المحسنات من جناس أو طباق أو تورية أو غيرها. فقد يكرر الألفاظ بحروفها وصوتها أو يشتق من الأفعال مفعولاتها المطلقة أو غير ذلك من ألوان الجناس التي يحسّ أنها تضفي على الإِيقاع أصواتاً متناغمة، وتخلق روحاً موسيقية عذبة في عباراته، فمن ذلك ما نقرأه في إحدى رسائله من تكرار: "... يقروها فرعاً فرعا وأصلاً أصلا، ويقرها على مثلٍ مثلا، وعلى شكل شكلا"(185)، ومثله: "فلما اخترقوا من أقطاره ما اخترقوا، وحرقوا من منشئات الكافرين ما حرقوا"(186)، ومثله قوله: "كل كبد ذات كبد، وقريحة ذات قروح"(187)،

ومنه: "وأنه إن كان هنالك من الإِخوة المذكورين من يساعد ويساعد، ويعاضد في ذات الله ويعاضد، ويستدعي ما يجب استدعاؤه فلا يكابر في ذلك ولا يجاحد"(188)، فغرض التكرار واضح بيّن وهو إعطاء مزيد من التدفق الصوتي، ويظهر ذلك أيضاً في اشتقاق المفعول المطلق من الأفعال كقوله: "... فقطعوها قطعاً بتّا، وفتّوا بصرمها عن البر أعضاد الكافرين فتّا"(189).

ونجد مثله في رسالة أخرى قوله: "وولاية تنوب في تنويه جانبكم وإكلاء مطالبكم أكرم إنابة،... فاشكروا الله تعالى على عظيم هذه المنة شكراً تصيبون به شاكلة التناهي خير إصابة ..."(190)، أو يشتق من الفعل اسم فاعله كقوله: "وإن عاج عن سنة إخلاصهم عائج، وهاج عزمهم عن حماية أمرهم هائج"(191)، ومثله قوله في الرسالة نفسها: "وأخطرت على مجاري التنبيه خواطرهم، وأُجري النعت فيما درج عليه دارجهم، وصار إليه صائرهم"(192). ويقول في موضع آخر مستخدماً ألواناً أخرى من المحسنات اللفظية: "واعقدوا عليه المغتبط الضنين، وإنما ينبغي أن يقع موقع السرور المتمكن، ويتخلل جذله جوانحكم تخلّل المبالغ الممعن"(193).

واستخدام هذا اللون من الجناس كثير عند ابن عطية وهو مفضل لديه، ولكنه كان إلى جانب ذلك يستعين بالطباق لتحقيق غاياته في تجميل أسلوبه منه قوله: "يمحضُ اللهُ بها المؤمن ويمحق الكافر"(194)، وفي العبارة تزاوج بين الجناس والطباق، وكذلك يقول: "والصلاة على محمد نبيه الذي انجابت بنوره حنادس الكفر وظلمه"(195)، ويطابق في العبارة التالية بين العدل والجور وبين الحياة والهلاك وبين السعيد والشقي إذ يقول: " ... وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه، فالسعيد من لقي ربه مبرءاً من اتباع الهوى سليما، والشقي من أتى مليما"(196)، ويورد في مكان آخر طباقاً بقوله: "ومقابلة البعيد الصعب بالتقريب والإِسهال"(197).

وفي مجال التورية نجد أن رسالته الاستعطافية قد أكثرت من هذا اللون إكثاراً ملحوظاً بما استخدمته من أسماء الشخوص للتورية بهم عن أشياء كان يرمي إليها الكاتب، وهذا الاعتناء بترصيع الألفاظ والاحتفال بالصنعة البديعية والبيانية – كما يقول ابن تاويت-(198) كانت طابع العصر وأسلوبه، وبها يهتم الكتاب ويتبارون فيها، ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يبتعدون أحياناً

عما يقتضيه واقع الحال، وهم يكتبون عن السلاطين والحكام، فيجنحون إلى الخيال الشعري، وإلى تضمين رسائلهم عبارات وجملاً فيها من الصور والخيال والتشبيهات والاستعارات ما يخرج بها عما تتطلبه رسالة رسمية موجهة إلى حكام البلاد أو إلى الجمهور، ذات موضوعات سياسية أو دينية أو إرشادية أو غير ذلك من شؤون الدولة، فمن تلك الصور والتشبيهات الشعرية قوله: "حتى سطت مراقات الدماء على صفحات الماء وحكت حمرتها على زرقة حمرة الشفق على زرق السماء"(199).

ويحسن الكناية والتشبيه عندما يتحدث عن أعداء الموحدين الذين غرهم انسحاب جيوش الموحدين أمامهم لا لغلبة وإنما لخدعة رسمها قائدهم يقول: "والأقدار تجرهم برسن الإِهمال أجرارا، وتطوي في صدر الزمن مخبيئات من الامتحان وأسرارا"(200)، فإهمال الأعداء وسوء تقديرهم كالفرس المهمل الخامل يُجر جراً، وكأن الزمن يخبئ لهم في صدره وبين طياته من المحن والأسرار ما سوف يذهلهم ويرعبهم .. وفي مكان آخر من الرسالة نفسها يقول وهو يصف المعركة التي تساقط فيها الأعداء كتساقط الذباب

وانكسروا فيها وانهزموا: "..فذلّ لها المأمور منهم والآمر، وحاق الويل بهلال

بن عامر، أفل الهلال وخرب العامر ولم يحلّ بين سيوف الموحدين ورقاب الغلّ

من أولئك المفسدين إلا ليل أجنّه بغسقه، وطواه على أخريات رمقه".

ومن صوره وتشبيهاته قوله: "ثارت كوامن حسدهم تطرق وتنتاب، وأُنفرت

حيات إذايتهم تنسلّ وتنساب، وسلكوا في التحريب والتخريب مسلكاً لا يشك

فيه ولا يرتاب"(201).

جـ- ورسائل ابن عطية مثل بقية رسائل العصر الديوانية تستخدم في

حشوها جملاً اعتراضية في الدعاء غالباً، وبخاصة حينما يرد ذكر للخليفة

أو لأحد كبار الموحدين أو اسم لمدينة، منه قوله مثلاً: "من أمير المؤمنين – أيده

الله بنصره وأمده بمعونته، إلى الطلبة ..وفقهم الله وأعانهم على ما يرضاه ..

إلخ"(202).

ويقول في الرسالة نفسها: وقد صدرنا – وفقكم الله- على الحضرة العلية

– تينملّل – كرمها الله- بعد .."(203)، وكما هي العادة الجارية في

مراسلاتهم الموحدية أن يستهلوا الغرض الرئيس من الرسالة بعبارة "وهذا كتابنا إليكم" أو ما يشبه ذلك ثم يأتوا بعدها بجملة اعتراضية دعائية مشتقة من فعل الكتابة وقد تطول أحياناً، منه قوله: "وهذا كتابنا إليكم – كتب الله لكم بطاعته من مقامات المغفرة خير مقامة، وأدام لكم نصرة ما استقبلتموه. ونصرة ما أملتموه، أكرم إدامة، وأقام لكم في العالمين من شواهد الإِخلاص أبين أمارة وأوضح علامة – من حضرة مراكش .. إلخ"(204)، (ويكون الدعاء على الأعداء أيضاً بجمل اعتراضية مناسبة، منه قوله: ولم يعلموا – وقمعهم الله- أن وقاية الله هي التي تعصم)(205)، ودعوات الصلاة والترضية تأتي أيضاً هي الأخرى بعد ما يناسبها من ذكر أو قول.

د- أخذت رسائل ابن عطية في بعض فقراتها شكل الخطبة الدينية من حيث استخدامها الأسلوب المباشر واعتمادها على أفعال الأمر، وهو نمط تفرضه – في كثير من الأحيان- طبيعة الموضوع الذي تعالجه الرسائل، وما دامت معظم محاور مكاتباتهم الديوانية تتعلق بشؤون السياسة والحكم وبمشكلات اجتماعية أو دينية، فلا بد والحالة هذه أن نتوقع كون أسلوب

المكاتبات يجنح إلى مثل هذه الصيغ واللغة الخطابية المباشرة، من تلك الفقرات ما ورد في رسالة الخليفة إلى الطلبة بسبتة وجميع منْ فيها من الموحدين خاصة وعامة: "فاشكروا الله، عباد الله، شكراً دائماً .. وأحسنوا ضمائركم، وطهروا سرائركم .. وتوبوا إلى الله جميعاً ... ونعوذ بالله من الخسران، وقد آن لكم أيها المؤمنون أن تجددوا توبتكم تجديداً وكيداً وتغتنموا من هذه النصائح .. فبادروا إلى طاعة الله .. وشدوا أيديكم .. واعلموا أنكم راحلون فتزودوا فإن خير الزاد التقوى، وحافظوا على إخلاص النيات، .. واصفحوا، وأصلحوا، وتعاملوا بالخير تفلحوا، واقرعوا أبواب الرحمة .. وواظبوا على تغيير المنكر .. واشتغلوا بدينكم اشتغالاً يخلصكم .. إلخ"(206)، وهكذا يستمر الكاتب في أسلوبه الوعظي الخطابي مستخدماً فعل الطلب والأمر في تخاطبه مع طلبة سبتة. ولا تخرج هذه الرسالة عن خطبة دينية تلقى على جَمّعٍ من المسلمين، ومثل هذه النماذج تتكرر في كثير من رسائله ... يقول في أخرى من أمير المؤمنين إلى الشيوخ والأعيان في قسنطينة:

"فبادروا – وفقكم الله – إلى إجابة منادي الحق وداعيه، واسعوا إلى الخير ..

وسارعوا بالتوبة .. واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة بإتيان هذا الأمر العزيز في محل قيامه .. واستغفروا الله .. وتوبوا إلى الله .. واحذروا ثم احذروا تمادياً على الخطيئات وإصراراً، واحرصوا .. وكونوا ... واذكروا ... واتعظوا بغيركم فالسعيد من وعظ بغيره"(207).

هـ- أما رسائل كاتبنا من حيث الطول فهي تتراوح بين القصر البين الذي يقرب من الصفحة الواحدة من القطع المتوسط(208) وبين الطول الذي يمتد حتى يشمل صفحات وصفحات مثلما هي في رسالة الفصول التي استغرقت أكثر من ثماني عشرة صفحة من القطع المتوسط(209)، والذي يحدد حجم الرسالة موضوعها بالدرجة الأولى وما قد يولده الموضوع نفسه من أفكار واستطرادات، ثم مقدرة منشئها، ثانياً، على التعبير والصول والجول والتلاعب باللغة، وهو ما يميل إليه بعض الكتاب الإِنشائيين من إسهاب وإطناب. ولكن ابن عطية بشكل عام لم يكن يطيل أو يطنب إلا بالحدود التي يفرضها عليه غرض الرسالة ووظيفتها، وما يتطلبه واقع الحال. ولكن الذي

نقرره أن رسائل الموحدين بشكل عام قد بدأت تطول وتسهب قياساً إلى رسائل المرابطين(210).

منزلة ابن عطية:

من خلال ما تقدم تنتصب قامة ابن عطية الأدبية، وتأخذ مكانها بين كتاب النثر الموحدي، وتستحق بجدارة ما وصفه به الأقدمون من الكتاب والنقاد منهم ابن الخطيب الذي وصفه بعباراته الموجزة حين قال: "كان ابن عطية كاتباً بليغاً، سهل المأخذ، منقاد القريحة، سيّال الطبع"(211)، ومن قبل أشاد به ابن عذاري قائلاً: "وذكر الرواة الثقات أنه لم يبلغ مبلغ ابن عطية أحد من الكتاب ولا الوزراء المتقدمين في جده ومجده وكتابته وفصاحته ... إلخ"(212). ومن بعدهما أعجب به الغبريني فجعله بمقام أبي المطرف بن عميرة في نثره حيث قال: "وما رأيت من الكتاب ما أعجبني مثل كُتّب الفقيه أبي المطرف إلا كُتّب أبي جعفر بن عطية، والكُتاب كثير، وكَتّبُ هذين الرجلين عندي مقدم على غيرهما"(213)، وفي عصرنا الحاضر قال فيه محمد بن

تاويت وهو بصدد الترجمة له ولأخيه أبي عقيل: "إنهما مؤسسا الترسل السلطاني للدولة الموحدية، بل حتى لما بعدها من الدول المتعاقبة على هذه البلاد، وهي في أوج عظمتها وشامخ سيادتها"(214)، أما الأستاذ عبدالله كنون فقد أشاد به وبوأه منزلة تطاول منزلتي ابن زيدون وابن عمار "إذ لا يقصر عن ابن زيدون وابن عمار وأضرابهما من ذوي الوزارتين الذين تقدموه، ولو كتب لآثاره من الخلود ما كتب لآثار الآخرين لرأينا أنه يطأ مواقع أقدامهم ويكاد يزاحمهم بمنكبه"(215)، ومما تقدم ألا يحق للخليفة عبدالمؤمن أن يندم على قتل ابن عطية وأن يبكي عليه بالدموع؟(216) بعدما امتحن الشعراء بهجوه فما وجد فيهم من يسدّ مسدّه أو يملأ فراغه الكبير الذي خلفه .. ويقرر كلمة حق تعبر عما كان يتبوأه أديبنا من منزلة رفيعة ومكانة سامقة بقوله متحسراً متألماً: "ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه"(217).

وعلى كل حال فإن ابن عطية كان أديباً فحلاً وناثراً أصيلاً متمكناً من صناعته ملماً بمقوماتها وعناصرها، متضلعاً بوسائِلها وأسبابها، وكان يمكن

أن يعطي الشيء الكثير في مجال عمله لولا الدهر الخؤون الذي لم يعطه فرصته، فكسر قلمه وأطفأ نوره وهو لما يزل في شبابه وذروة مجده وعطائه.

هوامش البحث

1- انظر: عبدالله كنون: أبو جعفر بن عطية ص 5- 6، دار الكتاب اللبناني، وقد ذكر الأستاذ كنون أن والد أحمد بن عطية قد وردت ترجمة له في الجذوة، ولكننا لم نعثر على الترجمة المذكورة.

2- لسان الدين بن الخطيب: 263/1 تحقيق محمد عبدالله عنان – مطبعة الخانجي 1973.

3- ابن الأبار: 238/2، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة 1963.

4- نفسه، وقد وهم ابن الخطيب فجعل مولده سنة 527هـ، الإِحاطة 271/1.

5- نفسه 238/2، ابن الخطيب: الإِحاطة 263/1، المقري: نفح الطيب 183/5 تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت 1968.

6- ابن الأبار: الحلة 238/2.

7- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون 212/6 (ط. بولاق 1284هـ)، السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 131/2 تحقيق الأخوين الناصري، الدار البيضاء 1954م.

8- ابن الخطيب: الإِحاطة 263/1، العباس بن إبراهيم: الإِعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام 61/2، الرباط 1974.

9- البيذق: أخبار المهدي بن تومرت هامش ص 64، نشر عبدالوهاب بن منصور- الرباط 1971.

ابن الخطيب: الإِحاطة: 263/1، المقري: النفح 183/5.

10- انظر: ابن خلدون: تاريخه: 212/6، السلاوي: الاستقصا 131/2، العباس ابن إبراهيم: الإعلام 67/2.

11- ابن الأبار: أعتاب الكتاب ص 226، تحقيق الدكتور صالح الأشتر، دمشق 1961.

انظر: ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب – قسم الموحدين ص 31، تحقيق محمد الكتاني وآخرين. دار الغرب الإِسلامي، بيروت 1985، وفيهما أنه تفرد للكتابة لإِسحاق بن علي بن يوسف.

12- ابن الأبار: الحلة 194/2.

13- البيذق: أخبار المهدي ص 63 وما بعدها. وجاء في رواية أخرى أن مقتل أبي إسحاق إبراهيم كان عام 542هـ، انظر: ابن الأثير: الكامل 299/8، ابن خلكان: وفيات الأعيان 43/2، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 281/5.

14- ابن الأبار: أعتاب الكتاب 226، ابن الخطيب: الإِحاطة 263/1، ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب 31.

15- ابن الأبار: أعتاب الكتاب 226.

16- المراكشي: البيان المغرب 31.

17- ابن الخطيب: الإِحاطة 264/1.

18- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب ص 31، وانظر في الموضوع نفسه المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 199، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1949.

19- ابن الخطيب: الإِحاطة 264/1.

20- أعتاب الكتاب ص 225.

21- محمد بن تاويت: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى 252/1، الدار البيضاء 1982.

22- انظر المراكشي، المعجب: ص198.

23- ابن الخطيب: الإِحاطة: 264/1، السلاوي/ الاستقصا 131/2.

24- انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإِمامة ص 157- 158، تحقيق الدكتور عبدالهادي التازي، بيروت 1987، ابن الأبار: الحلة 242/2.

25- الحلة 225/2.

26- ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلى المغرب 156/2، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة 1955، المقري: النفح 508/3.

27- انظر: المصدرين السابقين نفسيهما.

28- هو أبو عبدالله محمد بن حسين بن عبدالله بن حبوس، مولى بني أبي العافية، كان شاعر عبدالمؤمن.

انظر: المراكشي: المعجب ص213- 214، وانظر: ترجمته في: محمد بن تاويت: الوافي ج 91/1 وما بعدها، وقال إن ترجمته في التكملة والذيل والتكملة.

29- محمد بن تاويت: الوافي 100/1.

30- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 194، الرباط 1973.

31- ابن عذاري: البيان المغرب 47.

32- ابن أبي زرع: الأنيس 195، ابن عذاري: البيان المغرب ص 47-51، البيذق: أخبار المهدي ص78- 79.

33- ابن أبي زرع: الأنيس 193- 194، ابن الخطيب: الإِحاطة 265/1.

34- ابن الخطيب: الإِحاطة 265/1، ابن عذاري: البيان المغرب ص56.

35- ابن الخطيب: الإِحاطة 271/1.

36- ابن عذاري: البيان المغرب، ص32.

37- انظر: المراكشي: المعجب ص 199- 200، ابن الخطيب: الإِحاطة 266/1، المقري: النفح 184/5، ابن عذاري: البيان المغرب ص 58، 59.

38- ابن الخطيب: الإِحاطة 265/1، وانظر: البيان المغرب ص58.

39- انظر: المراكشي: المعجب 199، وفي الإِحاطة 265/1 ذكر ابن الخطيب أن ابن عطية تزوج بنت يحيى الحمار من أمراء اللمتونيين وكانت أمها زينب بنت علي بن يوسف.

40- ابن الخطيب: الإِحاطة 265/1، وانظر: المقري: النفح 183/5، ابن عذاري: البيان المغرب ص57.

41- ابن الخطيب: الإِحاطة 265/1.

42- ابن عذاري: البيان المغرب ص58.

43- نفسه، ابن الخطيب: الإِحاطة 266/1، المقري: النفح 184/5.

44- ابن عذاري: البيان المغرب ص 59، ابن الأبار: الحلة 226/2، ابن الخطيب: الإِحاطة 266/1، المقري: النفح 183/5.

45- ابن الخطيب: الإِحاطة 266/1.

46- ابن عذاري: البيان المغرب ص 58، وفي الإِحاطة أضاف أن قتلهما كان بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة 267/1، وفي الأنيس المطرب ص196 لابن أبي زرع جاء أن مقتل ابن عطية كان في شوال سنة 552هـ.

47- ابن الخطيب: الإِحاطة 268/1، النفح 185/5، ابن أبي زرع: الأنيس 196.

48- ابن الخطيب: الإِحاطة 267/1، المقري: النفح 184/5، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 197 وقد ألحق القصيدة النونية بالرسالة النثرية وجعلهما شيئاً واحداً.

49- ابن عذاري: البيان المغرب ص58.

50- المقري: النفح 186/5.

51- انظر: السلاوي: الاستقصا 131/2، فقد أشار السلاوي الى أن والد ابن عطية قد تحول الى خدمة عبدالمؤمن ولما حاصر الخليفة فاساً اعتزم أبو أحمد الفرار فقبض عليه في طريقه وسيق إلى عبدالمؤمن فاعتذر فلم يقبل عذره وسحب إلى مصرعه.

52- المراكشي: المعجب 199.

53- المقري: النفح 185/5.

54- المراكشي: المعجب 201.

55- ابن الأبار: الحلة 237/2.

56- البيان المغرب ص58.

57- النفح 188/5.

58- انظر صفحة 20 من البحث.

59- المقري: النفح 184/5.

60- انظر: نفسه 184/5.

61- انظر الرسالة في ديوان ابن زيدون بتحقيق علي عبدالعظيم ص 680 وما بعدها، القاهرة 1957.

62- ديوان ابن زيدون ص 688، وسوف نعتمد على المصدر نفسه فيما نقتبسه من نصوص من رسالته الجدية.

63- المقري: النفح 184/5، وسوف نعتمد المصدر نفسه فيما نقتبسه من رسالة ابن عطية الاستعطافية.

64- عبدالله كنون: أبو جعفر بن عطية، ص 22، أما الأستاذ محمد بن تاويت فقد رجح أن يكون ابن عطية ينظر إلى الجاحظ في رسالته الجدية التي وجهها إلى محمد بن عبدالملك بن الزيات، ولكننا نرجح أن يكون تأثير ابن زيدون عليه أكثر- (انظر الوافي 253/1- 256).

65- انظر: ابن أبي زرع: الأنيس 196.

66- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص 35، ط. رباط الفتح 1941م.

67- القلقشندي 443/6 (ط. مصر) سنة 1915.

68- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص37.

69- يقصد بهما: عبدالعزيز وعيسى أخوي المهدي المعصوم. وقد أشار إلى ثورتهما ابن عذاري في البيان المغرب ص 47- 51، وانظر السلاوي: الاستقصا 124/1.

70- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل ص43.

71- انظر نفسه ص44، 45.

72- نفسه ص 46، 47.

73- انظر نفسه ص50- 51.

74- نفسه ص48، ويذكر ابن أبي زرع خبر مقتلهما والقضاء على ثورتهما قريباً من رواية البيان المغرب ولكنه يجعل قتلهما في عام 549هـ،

انظر: الأنيس المطرب ص 195، وانظر أيضاً: البيذق: أخبار المهدي ص78-79.

75- نفسه ص 51.

76- نفسه ص 69.

77- نفسه ص 96.

78- نفسه ص 97.

79- نفسه ص 98.

80- ابن صاحب الصلاة ص 70.

81- نفسه ص70، وفي المراكشي: المعجب ص228- 230، البيذق: أخبار المهدي ص80، وذكر المراكشي: أن عبدالمؤمن حاصر مدينة المهدي آخر سنة 553هـ وقد دام هذا الحصار سبعة أشهر إلا أياماً حتى فتحها ثم بعدها

بعث إلى قابس من افتتحها، ثم بعد ذلك افتتحت مدن وحصون عديدة منها قفصة.

82- تقع قفصة غربي مدينة صفاقس الساحلية، وشمال قابس وجنوب القيروان، انظر هامش المن بالإمامة ص77.

83- انظر: ابن صاحب الصلاة: المن بالإِمامة ص77.

84- انظر: ابن عذاري: البيان المغرب ص69.

85- انظر: ابن صاحب الصلاة: المن بالإِمامة ص84 وما بعدها، وقد جاء في كتاب الاستقصا للسلاوي 140/2 أن ابتداء البناء في مدينة جبل الفتح بجبل طارق كان في تاريخ ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة وكمل بناؤه في ذي القعدة منها.

86- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة هامش 83، وقد يكون منشئها عبدالسلام الكومي لأنه كان أثناء حصار المهدية كاتب الخلافة، كما يذكر البيذق في كتابه: أخبار بن تومرت ص80.

87- انظر: نفسه هوامش الصفحات 83، 84، 85، 91.

88، 89- مجموع رسائل موحدية ص 126.

90- نفسه ص 128.

91- ابن القطان ص 149 بتحقيق الدكتور محمود علي مكي، الرباط.

92- نفسه ص151، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص229، وفي البيان المغرب جاء تاريخها في الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة 543هـ. انظر ص37 منه.

93- ابن القطان: نظم الجمان 163.

94- نفسه: هامش ص151.

95- مجموع رسائل موحدية ص6.

96- ابن عذاري: البيان المغرب ص37، وانظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإِمامة ص229- 231.

97- ابن عذاري: البيان المغرب ص94، ابن صاحب الصلاة: المن بالإِمامة ص229.

98- انظر صفحة 15 من البحث.

99- انظر: ابن عذاري: البيان المغرب ص60، حيث ذكر جزءاً يسيراً من الرسالة، ابن أبي زرع: الأنيس 196.

ابن الخطيب: الإِحاطة 267/1، المقري: النفح 184/5، السلاوي: الاستقصا 132/2- 133.

100- انظر: ابن الأبار: أعتاب الكتاب 227- 229، ابن الخطيب: الإِحاطة 268/1، المقري: النفح 187/5، السلاوي: الاستقصا 110/2-112.

101- انظر: د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي ص188، ط. عالم الكتب – بيروت 1985.

102- انظر بحثنا عن المكاتبات الرسمية الأندلسية في عهد الموحدين ص6 وما بعدها، الذي سينشر في مجلة المورد العراقية.

103- يستثنى من ذلك رسالته الماسية حيث جاءت مبتدئة بقوله: كتابنا هذا من وادي ماسة، بعدما تجدد .. إلخ" فجاء ذكر المكان فقط دون الزمان ودون ذكر اسم المرسل منه والمرسل إليه .

104- جاءت البعدية في عموم رسائله بلفظ "أما بعد" سوى الرسالة السابعة حيث وردت بلفظ "وبعد حمد الله"، انظر مجموع رسائل موحدية ص17.

105- انظر الرسالة في: ابن القطان ص150 وما بعدها.

106- نفسه.

107- القلقشندي 443/6 (ط. مصر).

108- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص3.

109- انظر مثلاً: رسالته الأولى ص1 ورسالته الثانية ص3.

110- انظر مثلاً: نفسه: رسالته الرابعة ص6، رسالته السادسة ص13.

111- انظر مثلاً مراسلات ابن الجد عن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، ابن خاقان: قلائد العقيان 324/1، 333. بتحقيق الدكتور حسين يوسف خريوش، الأردن 1989.

112، 113- نفسه.

113

114- المراكشي: ص264.

115- قتل ابن عطية عام 553هـ، أما ابن عياش فقد توفي سنة 619هـ، وكانت خدمته الديوانية لأول مرة عند الخليفة أبي يوسف يعقوب الذي حكم للفترة (580- 595هـ)، انظر المعجب 261، 263.

116- انظر: يوسف عروج: النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس ص260، رسالة ماجستير – على الآلة الكاتبة- مقدمة إلى جامعة دمشق 1983، وفي الجامعة الأردنية نسخة عنها.

117- انظر بحثنا : المكاتبات الرسمية الأندلسية "النموذج الخامس من رسوم الصنف الأول.

118- محمد بن تاويت: الوافي 252/1.

119، 120- د. السعيد : المكاتبات الرسمية الأندلسية، الجانب الفني. 120

121- محمد بن تاويت: الوافي 256/1.

122- ابن الخطيب: الإِحاطة 263/1.

123- السلاوي: الاستقصا 131/2.

124- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص33.

125- نفسه 38 وما بعدها.

126- نفسه ص 47.

127- البيان المغرب: 37.

128- الاستبراء هو التريث على المرأة حتى تحيض ويتأكد عدم حملها، نظم الجمان، هامش ص160.

129- الرُّبّ – كما في لسان العرب: الطبخ الخاثر من عصير العنب، وقال الدكتور التازي إن اسم الرب معروف لحد الآن في إسبانيا ويطلق على نوع من المتناولات ARROPE، وقد كان شربه معهوداً لدفع شدة البرد والثلج، لكن الموحدين انتبهوا الى أنه مسكر فأصدروا الأمر بمنعه وذلك سنة 580هـ. (انظر: المن بالإِمامة، هامش ص 113- 114، وانظر مجموع رسائل موحدية، الرسالة 28 صفحة 164، الاستقصا 188/2).

130- ابن القطان: نظم الجمان ص162.

131- نفسه 164.

132- انظر: رسالة الفصول: نظم الجمان ص151، وانظر هامش الصفحة نفسها، والرسالة الثالثة من مجموع رسائل موحدية ص5.

133- إ. ليفي بروفنسال: ص8.

134- نفسه ص 21.

135- نفسه ص 54.

136- انظر: نفسه ص57.

137- نفسه ص59.

138- انظر: نفسه ص62.

139- نفسه ص63.

140- نفسه ص64.

141- نفسه ص65.

142- د. السعيد: المكاتبات الرسمية الأندلسية - مصدر سابق – ص19.

143- نظم الجمان ص153، والآية الأولى من سورة النساء رقم 111، والآية الثانية من سورة الشعراء رقم 215.

144- نفسه ص 153، والحديث الشريف في صحيح البخاري/ كتاب الجنائز 79/2، وانظر تخريج الحديث هامش صفحة 153 من كتاب نظم الجمان.

145- نفسه ص154، الآية من سورة البقرة، رقم 9.

146- نفسه ص154، والحديث الشريف – كما ورد في هامش الصفحة عن محقق كتاب نظم الجمان – وارد عند الإمام ابن حنبل في

مسنده وخرّجه عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وقد استند المحقق إلى كتاب عبدالرؤوف المناوي: فيض القدير في شرح الجامع الصغير 192/6 -193.

147- نفسه ص161، والحديث الأول "الحلال بيّن والحرام بيّن" أورده البخاري في صحيحه 20/1، ومسلم 50/5، وابن ماجه 476/2- 477.

انظر هامش الصفحة نفسها.

أما الحديث الثاني: ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام، فقد قال محقق نظم الجمان: إن الذي جاء في كتب الصحاح: "ما أسكر كثيره فقليله حرام"، انظر "فيض القدير" للمناوي 420/5، وسنن ابن ماجه 332/2، وسنن النسائي 300/8- 301، وسنن أبي داود 130/2، راجع بصدد ذلك هامش الصفحة نفسها من نظم الجمان.

148- مجموع رسائل ص3.

149- الآية 197 من سورة البقرة.

150- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص53.

151- آية رقم 19 من سورة الحشر.

152- مجموع رسائل موحدية ص41.

153- آية رقم 4.

154- مجموع رسائل موحدية ص69.

155- سورة يوسف رقم الآية 51.

156- ابن الخطيب: الإِحاطة 269/1.

157- سورة آل عمران آية رقم 178.

158- ابن الخطيب: الإِحاطة 269/1.

159- سورة الأنبياء آية رقم 96.

160- انظر: محمد بن تاويت: الوافي ص 258- 259.

161- مجموع رسائل موحدية ص63.

162- ورد الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان 195/3، وقال: إن هذا الحديث قد أخرجه البخاري 8 كتاب الصلاة – باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره.

163- ابن القطان: نظم الجمان 163.

164- نفسه، هامش ص 161.

165- نفسه ص166.

166- انظر نفسه هامش ص166.

167- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص30.

168- الميداني: مجمع الأمثال 161/1 فيما أوله جيم، بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

169- مجموع رسائل موحدية ص52.

170- ابن الخطيب: الإِحاطة 269/1.

171- انظر: محمد بن تاويت: الوافي 259/1، وقد ذكر أن " عقد الكرب" هو الحبل الموصول بالرشاء الملوي على خُشيّبات الدلو المعروفة.

172- الإِحاطة 270/1.

173- انظر: ابن تاويت: الوافي بالأدب 259/1.

174- الإِحاطة 269/1.

175- التجيبي: زاد المسافر 113، المقري: النفح 448/3، وروي البيت في المعجب لابن البني (أبو جعفر أحمد بن محمد) ص 171.

176- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص21، وانظر ابن القطان نظم الجمان ص157 حيث أورد مجموعة من السجعات الثنائية.

177- نفسه ص 32.

178- نفسه ص 27.

179- انظر مثله ص 14 من الكتاب نفسه حيث بنى الفقرة على حرف الحاء ثم أورد أثناءها تقفيات أخرى.

180- نفسه ص1.

181- نفسه ص4.

182- الكلاعي: أحكام صنعة الكلام ص240، بتحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الثقافة- بيروت 1966.

183- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص190، وانظر منه ص16.

184- د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد ص 576.

185- إ. ليفي بروفنسال مجموع رسائل موحدية، ص48.

186- نفسه ص12.

187- نفسه ص14.

188- نفسه ص65، وانظر ص14.

189- نفسه ص11.

190- نفسه ص15.

191- نفسه ص68.

192- نفسه ص69.

193- نفسه ص9.

194- نفسه ص54.

195- نفسه ص4.

196- ابن القطان: نظم الجمان ص 153.

197- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص29.

198- محمد بن تاويت: الوافي 257/1.

199- ابن الخطيب: الإِحاطة 270/1.

200- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص33.

201- نفسه ص42.

202، 203- نفسه ص1.

203

204- نفسه ص14.

205- نفسه ص 44.

206- نفسه ص 2- 3.

207- نفسه ص 18- 19.

208- انظر الرسالة الثانية في كتاب: مجموع رسائل موحدية ص3- 4.

209- انظر رسالة الفصول في كتاب: نظم الجمان 150- 167.

210- انظر: ابن شريفة: أو المطرف ص181، والدكتور السعيد: المكاتبات الرسمية الأندلسية – مصدر سابق ص30.

211- الإِحاطة 263/1.

212- البيان المغرب ص58.

213- عنوان الدراية، ص299، تحقيق عادل نويهض، بيروت 1969.

214- الوافي 251/1.

215- أبو جعفر بن عطية ص13.

216- انظر: ابن عذاري: البيان المغرب ص58.

217- المقري: النفح 186/5.

قائمة المصادر والمراجع

1- ابن الأبّار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن القضاعي (ت 658هـ):

أ. أعتاب الكتاب: تحقيق الدكتور صالح الأشتر، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق 1961.

ب. الحلة السيراء: تحقيق الدكتور حسين مؤنس – الشركة العربية للطباعة والنشر- القاهرة 1963 (الجزء الثاني).

2- ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي (ت 726هـ):

الأنيس المطرب / مطبعة دار المنصور – الرباط 1973.

3- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت 630هـ): الكامل: تحقيق عبدالوهاب النجار، مصر، المطبعة المنيرية 1353هـ.

4- ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف الأتابكي (ت 808هـ):

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – مطبعة دار الكتب بالقاهرة 1935.

5- ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله) (ت 529هـ): قلائد العقيان، بتحقيق الدكتور حسين يوسف خريوش، ط. مكتبة المنار – الأردن 1409هـ- 1989م.

6- ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبدالله بن سعيد التلمساني (ت 776هـ): الإِحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، طبعة الخانجي – القاهرة 1973.

7- ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون المغربي (ت 808هـ):

العبر وديوان المبتدأ والخبر، أو تاريخ ابن خلدون، ط. بولاق 1284هـ.

8- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة بالقاهرة 1948م.

9- ابن زيدون: أبو الوليد أحمد (ت 463هـ):

ديوان ابن زيدون، تحقيق علي عبدالعظيم، القاهرة، مطبعة نهضة مصر 1957م.

10- ابن سعيد الأندلسي: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت 685هـ): المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة 1955.

11- ابن شريفة/ دكتور محمد:

أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط 1966.

12- ابن صاحب الصلاة: عبدالملك: المن بالإِمامة: تحقيق الدكتور عبدالهادي التازي، دار الغرب الإِسلامي، بيروت – لبنان 1987.

13- ابن عذاري المراكشي: أبو العباس أحمد بن محمد (كان موجوداً سنة 706هـ): البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، قسم الموحدين– تحقيق الأساتذة (محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبدالقادر زمامة)، دار الغرب الإِسلامي، بيروت 1985- 1406هـ.

14- ابن القطان: نظم الجمان (جزء منه)، تحقيق الدكتور محمود علي مكي- الرباط.

15- إ. ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحدية من إنشاء الدولة المؤمنية، المطبعة الاقتصادية – الرباط 1941.

16- البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي):

أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، نشر عبدالوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط 1971.

17- التجيبي: أو بحر صفوان بن إدريس المرسي (ت 598هـ):

زاد المسافر، تحقيق عبدالقادر محداد، بيروت 1970م.

18- السعيد: دكتور محمد مجيد: المكاتبات الرسمية الأندلسية في عهد الموحدين، بحث معدّ للنشر في مجلة المورد العراقية.

19- السلاوي الناصري: الشيخ أبو العباس أحمد خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954م.

20- السيوفي: دكتور مصطفى محمد أحمد علي:

ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ط. عالم الكتب – بيروت 1985م- 1405هـ.

21- العباس بن إبراهيم: الإِعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية – الرباط 1974م.

22- عبدالباقي أحمد فؤاد:

اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – دار الريان للتراث – القاهرة 1986.

23- عبدالله كنون: أبو جعفر بن عطية: سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب (5)، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر- بيروت.

24- الغبريني: أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدالله (ت714هـ): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر – بيروت 1969.

25- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا/ طبعة دار الكتب العلمية/ بيروت 1987، واعتمدت كذلك على ط. مصر 1915م.

26- الكلاعي: أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الإشبيلي الأندلسي: أحكام صنعة الكلام، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت 1966.

27- محمد بن تاويت:

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة – الدار البيضاء 1402هـ- 1982.

28- المراكشي: عبدالواحد بن علي (ت647هـ):

المعجب في تلخيص أخبار المغرب/ تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة 1949م- 1368هـ.

29- المقري: أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ):

نفح الطيب: تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، دار صادر 1968م.

30- الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت518هـ):

مجمع الأمثال 1- 2، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار القلم – بيروت/ لبنان.

31- يوسف عروج:

النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس، رسالة ماجستير – على الآلة الكاتبة – مقدمة إلى جامعة دمشق 1983 .

الملحق

رسائل أبي جعفر بن عطية

الرسالة الأولى:

من أمير المؤمنين-أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين بسبتة والاشياخ والاعيان والكافة بها -وفقهم الله وأعانهم على شكر نعماه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله أهل التقوى والمغفرة، وولي الرحمة الشاملة والرأفة الواصلة والميسرة، الذي نور اقئدة المهتدين بانوار التبصرة، وأقبل بقلوب الراشدين قبل التبيه والتذكرة، وأعلن بعصم محبته علق النفوس التوابة المتطهرة، والصلاة على محمد نبيه المبتعث بالحجة الغراء المبصرة، والدعوة الظاهرة المظهرة، والسنة الواضحة النيرة، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته المختصة المؤثرة، والرضا عن الامم المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى على رغم الفرق الجاحدة المنكرة، المؤيد في رفع أسباب الشنآن، والحماية عن ترعات الشيطان، بمواد المعونة المنهضة المقدرة.

وهذا كتابنا إليكم- عرفكم الله من عوارف نعمه أفضل ما تتعرفون، وسقاكم من معين حكمته ما لاتصدعون عنه ولا تنزفون، وأولاكم من رحمته ما تحافظون على شكره وتعكفون، وجعل لكم بالايمان والعمل الصالح ودا لاتصدفون عن رعايته، وحفظ غايته، ولا تصرفون -من حضرة مراكش- حرسها الله- ونحن نشكره سبحانه أن جعل هذا الامر المبارك قطب المصالح، وملتقى الفواتح، ومرتقى المطامح، فالخيرات بمحيطه، محصورة، والمسرات على عمدة بسيطة، مقصورة، والقوى في خدمة مقاصده معضودة منصورة، وما تجريه الاقدار، وياتي به الليل والنهار، فإلى تمكينه يستبق، وعن عجائب مكنونه ينطق.

وقد كان في الامر الذي عرفناكم بثلجه، وأطلعناكم على ساره ومبهجه، ما اجتليتموه من مستوضح الفتح ومجتلاه، ووعيتم من معجزاته ما أورده الحق وتلاه، ورأى به الكافة أن عدو هذا الامر السعيد تولى ما تولاه، وتلقى سعير شره وتصلاه، واستمر البحث بعد ذلك على أوليته، وأشرف الفحص على يقين المطلب وجليته، وبكون ذلك على المستطير من مخباه، المستدير على

مسقطه ومكباه، إلى جانب الموحدين انتسابه، وعليه لا عليهم سعيه واكتسابه، نشات لهم بين الخجل والوجل حالة التناصح والتعاتب، ووحشة التباحث والتطالب. وإن كانت موداتهم الوثقة موصولة الحبال، مبتولة الفلال، مجبولة على الالتحام والاتصال، لها الوفاء والصفاء، والقديم الذي لايلم به الدروس والعفاء، فدعت هواديهم فما تطال، ومضت سوابقهم فما يرام إدراكها ولا يحاول، وملأ الزمان حديث فخرهم فهو المردد المتداول، فحبهم لهذا الامر وأهله مكين الاستحكام، ثابت القضايا والاحكام، منشور على صدور الليالي ووجوه الايام، وإن عاج عن سنة إخلاصهم عائج، وهاج عزمهم عن حماية أمرهم هائج، ولوا الخائن من وجهته لفوره، وأسلموا الحائر بمرديات جوره، وتميز كل بمقامه وطوره، ذلك مما يسرون له من طهارة التمحيص والتلخيص، وخصوا به من أثر الايثار والتخصيص.

ولما عمرت باذكار الموعظة محاضرهم، واخطرت على مجاري التنبيه خواطرهم، ونورت بأبصار التذكير بصائرهم، وأجري النعت فيما درج عليه دارجهم وصار إليه صائرهم، وأتى البيان على ذكر هذا الامر العظيم شرحا

وتفصيلا، وجمعت سوابقه ولواحقه في معرض التعوين جمعا وتحصيلا، ووصل القول في تنزيل الاشياء منازلها توصيلا، وبديت مقامات الامام المهدي-رضي الله عنه- في استصحاب طائفته تقعيدا بها وتاصيلا، حصحص الحق الذي لايدفع، وظهرت الصول التي يبنى عليها ويرفع، وترددت المخاطبات والعبارات فيما يفيد من ذلك وينفع، والموحدون –أكرمهم الله- خلال ذلك في اعتراف دائم، وإنصاف لازم واستعطاف ماثل بمثابة الخضوع قائم، والايام تمر يوم بعد يوم، والاقوال تتوجه في عتب ولوم، والكل يعرض في مواقف التوبة ناس بعد ناس وقوم بعد قوم. وبعد ازمة متطاولة، واجتماعات متواصلة، أردنا مباشرة احوالهم، وسماع اقوالهم، فاستحظر شيوخهم وأعيانهم وطلبتهم وعمالهم في محفل التقت على الصدق أطرافه، واحتوى على مقاصد الحق اشتماله واتفافه، وجرت على أهل التقدم والسبق نعوته واوصافه. فعند انبعاث الموعظة إلى الجمع وعرض أحوالهم وأقوالهم بين البصر والسمع، تصعدت زفرتهم من الذكرى وفاضت أعينهم من الدمع، وكلما أعيد عليهم خطاب، او توجه إليهم عتاب، أو التمس منهم على فصل من

الفصول المقررة جواب، تضالت أشخاصهم خجلا، وابتغوا الى جانب المغفرة حولا، فمن اصوات مرفوعة بالمتاب، ومن عبرات دائمة الانهمال والانسكاب، ومن تطارح على جهة الصفح والاعتاب، واستعادة من أسباب الشك والارتياب، حتى تمثلت صور الاخلاص في الابشار، وتحلى صفاء الضمائر في قرائن الاحوال والاثار.

وأوقع الله عند ذلك في النفوس ان الذي يتطرق به القول إلى بعض، ويفضي بقوم في قوم إلى الكراهية والبغض، من يتخلل قبائلهم من مشى بنميمة، وساع في ذميمة، ومتقلب من صور الاعتياب في كل معقوقة منقومة. ولما في ذميمة، ومتقلب من صور الاعتياب في كل معقوقة منقومة. ولما بين لهم ذلك من وجوه تحققه، وأطلعوا على موجبات تسببه وتطرقه، وعرفوا بما في الاذهان فيه من اتصالهم به وتعلقه، اقروا بالصدق فيه أتم إقرار، واستعادوا له ولما تقدمه كل استقالة واستغفار. فامروا بتجديد المتاب وتحقيقه، وحضوا على توكيد الخلوص وتوثيقه، وحذروا من ملابسة من يسعى على اتصالهم واجتماعهم بقطعه وتفريقه، فعاهدوا الله تعالى على

ذلك أوثق معاهدة، وشوهدت دلائل اليقين وإمارة الصدق منهم أوضح مشاهدة و فتنزلت ملائكة الرحمة من آفاقها، وفاض على القلوب فيض حنانها وإشفاقها، وعممت المغفرة بفضل الله على أتم وجوه تعميما وإطلاقها، وملئت الجوانح تفريجا وتبشيرا، ووطئت الاحوال تسهيلا وتيسيرا، وانجابت عن النفوس ظلم التوحش، وانحلت عن العقول عقل الدهش.

وأمر الموحدون عن آخرهم بالتصالح والتغافر، واستئناف أحوال التعاون والتظافر، وقطع أسباب التباعد والتنافر، فاجتمعوا لذلك أفضل اجتماع، وتمتعوا من نعماه باكرم متاع، واستعيدت أحوال تؤاخيهم وتصافيهم باحسن استعادة واسترجاع، وصارت أيامهم أيام مصافحة بإيمان، ومفاتحة بإحسان، وتأسيس بنيتان على تقوى الله ورضوان.

وأعلمناكم-وفقكم الله- بهذه الرحمى، والمسرة العظمى، لتأخذوا من ذلك بأوفر الحظوظ والاقسام، وتكونوا على ثلج هذا التعريف والاعلام، وتشكروا الله على طوله وإنعامه فهو أهل الطول ولانعام، وتبادروا الى انتهاز هذا الباب المفتوح مبادرة الاغتنام، وتقتضوا في التغافر والتصافح وصلة الارحام، بهذه

الآداب الكرام، وتفعلوا مثل ما فعله إخوانكم الموحدون على قصد الاعتقاد له والالتزام. جعلنا الله وإياكم من عباده الشاكرين لما أولاه، العاملين بأحق مقصوده وأولاه، بمنه وفضله، لارب سواه. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في الخامس لجمادى الاخرة من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

الرسالة الثانية:

من أمير المؤمنين –أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة والاشياخ والاعيان والكافة بسبتة- وفقهم الله وأدام كرامتهم بتقواه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله على تمكين أسباب الاجتماع والانتظام، وتقريب مدارك الانتفاع بأعطياته، والصلاة على محمد نبيه المنبعث رحمة للانام، وعصمة لاولي التمسك والاعتصام، وعلى آله وصحبه الكرام، الجارين في إنتهار خيراته وإحراز بركاته إلى أبعد غايات الاغتنام، وأقصى نهايات الالتزام، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، قبلة الاهتداء والائتمام، وخاتمة الختم النبوي في الكمال والتمام، وموضع البشرى على آخر الزمان وعقبى الايام.

وهذا كتابنا إليكم- كتب الله لكم من تجدد الانعام، وتوفر الحظوظ المسعدة والاقسام، ما ينور بصائركم في الاعتناء والاهتمام، ويصحب أوائلكم

وأواخركم من الافتتاح وسعادة الاختتام -من رباط الفتح- عمره الله- وفي سبيل الله ما يربط بلروابط هذا الامر العزيز ويعقد، وعلى طاعته وتقواه ما ينظم لرضاه ويسرد، ولا مستعان سواه فهو الذي يعين بفضله ويؤيد .

وقد تقدم إليكم -وصل الله إكرامكم، ووالى تعريفكم بالمسار وإعلامكم - ما كان من إجماع الموحدين وأصفيائهم على عقد هذه البيعة المجددة والتزام شروطها المذكورة وأن ذلك لم يكن له عندنا قصد متقدم، ولا عهد متوهم، لكنه أمر أراده الله فأتمه، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعمه، ونرجو ان الخيرة التامة في انعقاده، والسعادة العامة في التزامه واعتقاده. ولما استوى بفضل الله بنيانه المرصوص، وثبت على الصدق والثلج حديثه المنصوص، وتعين في سوابقه ولواحقه الصفاء والخلوص، وكان من هذه العشائر الهلالية والوفود المشرقية إيابها الميمون، وتأهل لها بتوفيق الله وتسديده خيره الموعود ونصره المضمون، ورأت أن الذي أملته في معنى الاختصاص بمحمد —وفقه الله- قد تأنى في درج العموم، وصار بمجمع الآمال في قرارة البيوت واللزوم، رغبت رغبة مستأنفة في إستصحاب أحد أخوته-وفقهم الله- على التعيين،

وبينت ما في ذلك من جمع الكلمة وضم أشتات المصالح المقدمة بأتم وجوه التبيين، وأصفقت على ذلك يقطع أسباب الاختلاف، ويفتح أبواب الائتلاف، ويعمر جوانب تلك الارجاء والاكناف، بأحوال الدعة والسكون.

واتصل ذلك بشيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم-وفق الله جميعهم- فتبينوا فيه من وجوه المنافع، ومقاصد المصالح والجوامع، ما اعتقدوا وجوب سؤاله. ورأوا قبل الخير في بادي استقباله، واتفقوا على أن يصحبهم المرغوب، في استصحابه لدفع دواعي الشغوب، وإجراء الامر في تفاصيله وحمله هناك على هذا القانون المبارك والاسلوب، وانبعثت خواطر أهل البلاد كلها إلى التماس مثل هذا المسؤول المرغوب، وأملوا ترتيب آمالهم للدين والدنيا على هذا الترتيب، فسأل طلبة تلمسان وأعمالها ومن حضر من أهل حواضرها وبواديها أن يكون لهم من هذا الامر المتجرد، والشأن المسعد، حظ يفوزون بنعماه، ويحوزون منه أزكى قسمة وأنماه، بأن يستصحبوا من الاخوة المذكورين من يكون اليه استنادهم، ويدور عليه إجتماعهم وإعتمادهم، ويتمكن به استعانتهم واعتضادهم، ويتم بالاتفاق معه أملهم من رفع الخلاف ومرادهم.

فتلقى ذلك من قبول الموحدين وتبنيه، وتقرره في نفوس جميعهم وتمكنه، ما أراهم طلبه فرضا، وكونه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. وكانت المذاكرة فيه فتبين وجه المصلحة في تلقيه، وسبيل السداد في تيسيره وتأتيه.

واشتغل بالنظر فيما يصلح بذلك، والاستعداد بما هنا وهنالك، وكانت بعض أيام مذاكرة من الشيوخ والطلبة والعمال ومن حضر ذلك الغرب الوسط في ترتيبه وتهذيبه، وضمه إلى قوانين النظر السديد وأساليبه، فرأوا أن الذي يعقد أمره بمعاقد السداد، ويبنى بنيانه على قواعد الاتصال والاطراد، ويقضى له من الاغتباط ما تقدم ذكره بأوفر حظوظ التوفيق والاسعاد، أن يكون في وسطه من الاخوة المذكورين من تسكن إليه قلوبهم، ويتاتى به مسؤولهم من الاتفاق ومطلوبهم، ويستريغون بالاجماع عليه ما كان يغريهم، من التنازع والتهالك ويغويهم، وأن يكون أمر غمارة وما اتصل بهم من عمل سبتة وجهاتها راجعا إلى العمل المذكور، مرتبطا به في سائر الشؤون والامور. وكان في ذلك من إعادة القول وتكريره، وتفصيل الذكر وتفسيره، ما أظهر سبيله على مظاهر البيان، وأبرز مكنون الاستقامة به العيان.

ثم تذاكر الطلبة العاملون على سبتة وأعمالها –وفقهم الله- مع إخوانهم في معنى البحر ومجازه، واتساع النظر في مراسيه وأحوازه، وكونه رابطا بين العدوتين، جامعا إلى إصلاح الجهتين، عائدا راجعا، وانه إذا أبقى معه النظر في أمر غمارة وسائر القبائل التي الى سبتة وطنجة والجزيرتين ومالقة وأعمال جميعها محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط، وتجتمع اليه هذا النظر المؤيد البسيط، وينزاح به عن أشغاله المهمة التقصير والتفريط، وأنه الآن فيما يرام لهذه الغزوة الكبرى، من إنشاء الاسطول -عمره الله- في جميع البلاد الصالحة للانشاء، وغزو أعداء الله برا وبحرا، في كافة الانحاء والارجاء، أحق بالعناية والاهتبال، وأسبق إلى التماس الارتباط والاتصال، وأنه إن كان هنالك من الاخوة المذكورين من يساعد ويساعد، ويعاضد في ذات الله ويعاضد، ويستدعي ما يجب استدعائه فلا يكابر في ذلك ولا يجاحد، اتصلت المواد، وانفصلت القواطع الحواد، وتمكن التصافي من خدمته والتواد، وارتبط البحر بالبر، فكانت المعاملة فيه بين العاملين عليها بما يجب من المساعدة والبر.

وأتت هذه الأمور -وفقكم الله- أمرا بعد أمر، على غير قصد منا ولا ذكر، بل على وجوه يعلم بالضرورة انها نشات لأحيانها، وظهرت دون مقدمة لأعيانها. ولما رأينا اتفاق الشيوخ والطلبة والعمال -وفق الله جميعهم- على ترتيب هذه الأمور، وإصفاقهم على مافيه من صلاح الجمهور، وظهور أنوار المهدي -رضي الله عنه- في مشارق الوضوح والظهور، استخرنا الله تعالى في إنفاذ ما رأوه، ورجونا بمشيئة الله التوفيق لهم في تيسير ما أملوه ونووه، وتذاكرنا معهم في ان الذي تكمل به هذه الارادة، وترجى بالتعاون عليه البركة والسعادة، أن يكون مع كل واحد من المذكورين من ينتهي إليه الاستحسان، ويقوم على خيره وفضله الجلاء والبيان، فعين لهم من كبار الطلبة والحفاظ وأعيان الفقهاء والقضاة، ونخبة الأمناء والثقاة، وخيار الانجاد من الغزاة، من يعينهم في جمع العساكر وتمييز القبائل وتأليف الكتائب والامر بالمعروف والنهي عن المنكر في كافة المقاصد والمذاهب، وأخذ الناس بالتفقه في دينهم وتعلم مايتعين تعلمه باللازم الواجب، والعدل بين الاحكام، والقضاء بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على الحاضر والعام، واستخراج ما الله من وجوهه

السائغة الطيبة على غاية مستطاعهم من الترتيب والاحكام، ومياسرة الجمهور، في سائر الأمور، بما يجري على مقتضيات الايمان والاسلام. وانتخبت لكل جهة من الجهات المذكورة من قدماء الموحدين وأوليائهم بقدر ما احتيج إليه، فاشتركت في هذا الخير قبائلهم، وتقدمت إلى أوائله أوائلهم، واستقبل منه الموحدون كافة ما يواليهم بفضل الله ويواصلهم، واستقامت هذه الاحوال بحمد الله على ما أمل من استقامتها، واعتمد من إظهارها على قواعد الحق وإقامتها.

وأعلمناكم -وفقكم الله- بها على الاجمال لتكونوا بسماع أنبائها، والوقوف على جلائها، كالمشاهدين لايعازها وإمضائها، والمشاركين في استحسانها وارتضائها. وليس لنا في ذلك كله إلا بما يجري بطاعة الله ورسوله في تيسير آمال الموحدين وموافقتهم، ورغبتهم فيما يشيرون إليه بفضلهم وسابقتهم. والله يجعلنا وإياكم من شكر الاه إسرارا وإعلانا، واستدام بفضله أعوانا وإخوانا، بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

الرسالة الثالثة:

رسالة في ولاية الامير أبي عبد الله بن الخليفة:

من أمير المؤمنين —أيده الله بنصره، وأمده بمعونته - إلى الطلبة الذين بسبتة وطنجة- حرسهما الله- وجميع من بهما من الموحدين والاشياخ والاعيان والخاصة والعامة- وفقهم الله وأعانهم على شكر نعماه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله على إعلاء دينه وتمكينه، وإجراء هذا الامر العزيز على أفضل أساليبه وقرائنه، وإمضاء أراء أهل الحق في صوب إسعاده وتيمينه، والصلاة على محمد نبيه المصطفى وأمينه، ومبلغ رسالته على أكمل حالاته من بيانه الباهر وتبيينه، وعلى آله وصحبه الذين ألقوا صفقة أيمانهم بيمينه، وولوا عهد إيمانهم من ارتضوه لإمامة مفروضه ومسنونه، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى في كافة أحواله

وشؤونه، العامل بإظهاره، وبث أنواره، على معارج آياته وبراهينه، المؤيد بأخذ الغاية، وحوز النهاية، بصفات تخصيصه وعلامات تعيينه.

وهذا كتابنا اليكم-كتبكم الله ممن اتخذ عند الرحمن عهدا، واستمد في صلة أمره واستدامة خيره عزما صادقا وجدا، واستعد من الباقيات الصالحات بما هو خير ثوابا وخير ردا، واستنجد للوفاء بأمانته، والصفاء في حفظ العهد وصيانته، حبا خالصا وودا-من رباط الفتح- عمره الله- وفي كنف الله ورعايته من يصيخ لنبأات الخير أسماعه، ويربط بمعاقد الصلاح إصفاقه وإجماعه، ويمضي على مناهج الفوز والفلاح عزمه وإزماعه، ولله بكم، معشر المخاطبين- أكرمكم الله- عناية وصلت بحبله المتين، حبالكم، ومكنت في أمره المكين، آمالكم، وأكرمت بألطاف الرحمة، في أكناف النعمة، إقراركم وإحلالكم، وأرتكم ان العاقبة الحسنة باتباع هذه الواضحة البينة حالكم ومنالكم. فأنتم برعاية الله وكلاءته في جوانب الامنة راتعونو وإلى عواقب الخير راجعون، تستدرون أخلاف النعم استدرارا، وتستمطرون من بركات هذا الامر المبارك سماء مدرارا، وتجتلون من مشارق آياته وطوالع

بيناته أضواء باهرة وأنوارا . وحق من منح من حظوظ النعم ما منحتم، وأمسى وأصبح فيما أمسيتم فيه من الخيرات وأصبحتم، أن يسعى بمبلغ جهده في تقييدها، ويحرص بالتزام الشكر على مزيدها، ويستنفذ الوسع في طلب أسباب تقريرها وتأكيدها، وينظر في استدامة نعيمها، والاستقامة على مقيمها، لقريب أوقاتها وبعيدها .

ولما كنتم –أكرمكم الله- ممن اعتصم في هذا الامر العظيم بحبله وعروته، واقتدى بوجوب الاتباع بأسرته الهادية وقدوته، رأينا أن نعلمكم بما عقده إخوانكم الموحدون على تقوى من الله ورضوان، والتزموه بأتم ارتضاء واستحسان، وابتدروه ولهم التوفيق والاصابة على يسر وإمكان، وذلكم ان كثيرا من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها، من أشياخ الانظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر أخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها . وكانت هذه العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل إقليمها، وذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انتزاحهم، ولم تزل مخاطباتهم في ذلك تتردد حينا بعد حين،

ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج ويقين. فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة، للاخذ بأطناب السعادة المنيفة بهم على مقتضى الآمال والارادة، صرحوا لاول لقائهم بما أضمروه، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه، وأعلموا أن محمدا –وفقه الله- هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه، ورغبوا في تقديمه على بلادهم، وإنفاذه معهم على قصده في توليته ومرادهم. وكان استدعاؤنا لهم في هذه الوجهة المذكورة، والحركة المبرورة، لأمور قصدت فيها مذاكرتهم، ونويت بها مباشرتهم، لم تكن مما ذكروه في ورد ولا صدر، ولا كان ما سايره القدر جاريا معها في نظر. وكان التماسهم للجواب على سؤالهم، وبغاية اقتضائهم ونهاية استعجالهم، يتردد ذكره في صدور أقوالهم، ويتأزر أمره بشواهد عباراتهم وأحوالهم، ونحن بين ذلك كله على غير قصد ننويه، وما نظهره منه مثل الذي نبطنه ونطويه.

ولما إحتللنا جميعا هذا الرباط الميمون، واستتلنا بفضل الله خيره المعهود ونصره المضمون، وكان الوفد المذكور بمدرجة الاياب، ومرقب الالتفات والارتقاب، تاكد اقتضاؤهم للجواب، وتمكن حديثهم في معنى التقدم المذكور

والاستصحاب، فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ونتذاكر معهم في ذلك الامر المسؤول، ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين بأتم وجوه الالقاء والتوصيل، فكان ذلك على ما قصد، وذو كروا في الامر على ما توخي فيه واعتمد، وعرفوا بأن ذلك ليس مما بني عليه ولا مما اعتقد، فثارت منهم السواكن، وغلبت على الظواهر والبواطن، وعوين من أحوالهم لذكر فراق المذكور أغرب ما يعاين. وتقدمهم الشيخ الاجل أخونا أبو حفص عمر بن يحي –أعزه الله بتقواه- فقال: هذا أمر نحن بتقديمه، وأعلم بوجوبه ولزومه، وأولى بتأميره علينا وتحكيمه، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه، فهو مختارنا للدين والدنيا، ومسؤولنا المأمول للحياطة والرعيا. وأتبع ذلك من القول في معناه ما قصد أن يمكنه، وأراد أن يوضح به عزمه عليه ويبينه. وقال أكثر الحاضرين من الاشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الاراء: هذا أمر في ضمائر أكثرنا معقود، وفي نفوس جمهورنا موجود،

وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد واتفقت الكلمة من جميعهم أن في ذلك

من تجديد أمر الامام المهدي –رضي الله عنه– وتقويته، وبسط شأنه المعظم

وتسويته، ما لايجوز تأخيره عن ذلك المقام، ولا يحل الخلو عن التقليد له

والالتزام، وأن فيه من إبقاء الامر في نصابه، وإتيان الحق من أبوابه، واتباع

الدين من أخلائه وأحبابه، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتيابه،

والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ويضم شمل المؤمنين بأوائل هذا القصد

الصالح وأعقابه، ما ابتنى عليه اتفاقهم وإصفاقهم، واسترسل فيه تعيينهم

وإطلاقهم.

فاعلموا –وفقكم الله– بأن ذلك ليس له في نفوسنا عقد سابق، ولا نظر

لاحق، ولا طرق الضمير من أنبائه طارق. وإنما كان هذا القصد إلى ذكر

السؤال المتقدم الذكر، والكلام فيه على مقتضيات هذا الأمر. وانقضى

مجلس اليوم، ولا عزم على وجه من وجوه التأتي والتسبيب. واجتمع الشيخ

الاجل أبو حفص المذكور ومن تقدم ذكره من الطلبة والعمال بجميع من هنا من

أشياخ الموحدين وأعيانهم، وقدموا أهل النظر في أمرهم ذلك وشأنهم،

وعرفوهم بما كان من قولهم فيه وبيانهم. فاجتمع الملأ من آخره. وظهر الامر العجب لشاهده وحاضره، وانتثر القول في ماكن الوجوب وتظاهره. وأصفق الموحدون وجميع من معهم على تجمل العهد فيه وتقلده، وأعربوا عما اعتقدوا به من تقوي الأمر وتأييده، ورد إلى أصله ومستنده، وصار الجميع منهم في حد من موالاة الاقتضاء، على أتم وجوه الاختيار والارتضاء، لم يتقدم فيه عهد، ولا كان من مضاء آمالهم فيه بد.

ولما رأينا اتفاق كلمتهم على ربط هذا الامر وعقده، وإجماع جمهورهم على مافيه من نصر الدين وعضده، استخرنا الله تعالى في الاتفاق معهم على إنفاذه، وسألنا لهم السعادة الدائمة في بيعتهم هذه، ورجي لهم من الله تعالى إجراء ذلك على ما عودهم من الاصابة في المقاصد، والنجح في طلب المصالح والمراشد. وانعقدت البيعة المذكورة باتفاق جميعنا على الشمل والعموم، وقامت بأمر الله ورسوله في التفويض والتسليم، وأتى الامر فيها على أوفى شروط التكميل والتتميم، وابتدأها الشيخ الاجل أبو حفص المذكور بيمناه، قصدا الى اعتقادها على أكرم وجه وأسناه، وتتابع الاشياخ والطلبة

بعده على درجاتهم، وسرى النعيم بها في أبشارهم ومنحاتهم، وباشرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلا بعد قبيل، على أتم وجه وأنهج سبيل، وظهر من تألف القلوب على ذلك وتعاضدها، واجتماع النفوس ونواردها وترابط الافئدة وتعاقدها، ما ملك جوانح الكافة غبطة وأوسع أمر الموحدين بفضل الله عليهم مدا وبسطة، وتم ذلك بعون الله على أوثق مبانيه، وأطلق معانيه. والله يعرفكم أجمعين، وسائر إخوانكم من المؤمنين، بركة هذا الاجتماع والاجماع، ويوجد لكم ثمرة النعيم به والامتاع، وينهضكم في فروض الدين بواجب الاقتداء والاتباع، بمنه. والسلام.

الرسالة الرابعة:

من أمير المؤمنين —أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين بتلمسان- أدام الله كرامتهم بتقواه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنا نحمد إليكم الله لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه ورسوله. والحمد لله الذي أحل هذا الامر العزيز من عنايته بالمحل الاعلى، وخصه بدعاء الخلق إلى ركوب السبيل الواضحة والطريقة المثلى، وأقام كفته وحملته لاذكار القلوب الساهية، وتنبيه النفوس اللاهية، بسور من آياته تتلى، وعبر من مجتلياته تعرض في أوقات الغفلة وتجلى، وخطم بخزائم حدوده، وضم إلى حصر قيوده، من تبسط على الاسترسال وتدلى، واستفاء بحكمته وبيانه، وحالي شده وليانه، من أعرض وقاء بجانبه وتولى، وأصحبه من تمشية المقاصد، وتصفية المصادر والموارد، بما يكون له عند كل معتمد، وفي كل مقتصد، ردءا مكينا وكفلا، وأودعه من عطفات الرضوان، ونفحات الرحمة والغفران، ما يضع عن القلوب من متوقع

مؤبقات الذنوب آصرا شديدا وثقلا، والصلاة عليه وسلم- بين الحق والباطل حجزا مضروبا وفصلا، وأتم به النعمة، وأعم به الرحمة، إحسانا عمرا وعطاء جزلا، وتعريفا أنه الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء رحمة وعلما وفضلا، وعلى آله وصحبه الذين تبوؤوا بالهجرة والنصرة محلا عاليا ونزلا، وكانوا لما تحف لهم من الرضا، والثواب المقتضى، مستحقا وأهلا، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، مطلع أنواره، ومتبع آثاره، يقروها فرعا وأصلا أصلا، ويقرها على مثل مثلا، وعلى شكل شكلا، القائم بأمر الله وقد تغشت البسيطة ضلالا منطبقا وجهلا، وأشربت المنفوس من خبط العشواء، وغلية الاهواء، إمراجا وخبلا، واعتاضت برفع العلم وطموس الحق من رقي هويا ومن علو سفلا، فانتحته البشرى التي لا تتوقف، ووعد الوحي الذي لا يخلف، انه يملؤها قسطا وعدلا، ويجري في أمره إلى غاية هي ختم الوجود، وانقراض أمد الدنيا المحدود، مخصوصا من التأييد، وسنيات التمكين والتمهيد، بالاخلق منها فالاخلق والاولى فالاولى.

فإنا كتبناه إليكم- كتبكم الله ممن أحسن لقبول ما يعتمده، وتلقي ما يرده، استعداده، وأجاد لاعز المطالب، وأفضل المكاسب، انتجاعه وارتياده، وتدرب على عمل البر فألفه واعتاده، وارتاح لوارد التذكير، ووافد التبصير، فقوم به معوجه وثقف منآده -من حضرة مراكش -حرسها الله- ونحن نحمد الله على دينه الذي رفع علمه، وجمع معاقده وعصمه، وأمد له ببركة هذا الامر العزيز من متين العقود، ومكين العهود، مما سراه وألحمه، فلا خلال - والحمد لله- يعرو مبرمه، ولا نقض يعتور محكمه، ولا مائل عن مدرجه، عائج عن منهجه، إلا صادره التعديل وصدمه، فمدعو أقلع وأقصر، وعم كشف له الغطاء فأبصر وتبصر، ومريح شمر عن ساعد الجد وحسر، وراكب ردع لحاجه، وممتد في غلواء تنكبه عن السبيل وعياجه، ومنطو على دخيل داء قد نقل بعلاجه، كل يوفي قسطه، ويمضي عليه من ثواب أو عقاب ما أثبته الكتاب وخطه، وحدود له تتعدى، وحقوق لا يتجاوز بها الأمد المشروح والمدى، وكل بما أسر من سريرة، أو أحتقب من صغيرة وكبيرة، ملبس ومردى، لا هوادة يحتمل، ولا وسيلة سوى التقوى يدلي بها ويدل، ولا قربى بغير العمل

الصالح توصل، وتبل ميزان القسط عدل وأمال، ورجح وأشال، وكال لكل ما اكتال. والله بعد نفحات من رحمته يصيب بها من عباده من استنفحها، ويصل أبواب التوصل إليها من قرعها بالمتاب واستنفحها، ويصل أبواب التوصل إليها من قرعها بالمتاب واستفتحها، ويستقيل بها عثرات الزلة، وفترات الغفلة، ومن أعتق نفسه من ملكة الهوى وسرحها، أولئك الذين سبقت لهم منا الحسنى، وانقادوا بزمام العقل فما استمالت لهم دواعي النفس طرفا ولا استهوت منهم أذنا، وكلما ذهبت سنة بأجفانهم، أو عرض عارض في ميدانهم، قرعوا عليه من ندم سنا، واستشعروا لما أصابهم أسفا وحزنا، ثم تابوا إلى الفيئة، وتعلقوا بأهداب تلك الحالة الاولى وتلك الهيئة، وكانوا من التطلب لتلك الاذواق المستملاة، والمناظرة الحسنة المجتلاة، وكانوا من التطلب لتلك الاذواق المستملاة، والمناظرة الحسنة المجتلاة، بين ذهاب وجيئة. والله يلهم كلا إلى ما قصد به مما هو حظه الاجمع، وركنه الاشد الامنع، وعلق قضيته التي تهمل ولا تضيع.

وقد كنا –أعزكم الله بتقواه– عند ما أنسنا من فترات الاعمال، وحوول الاحوال، والاستئناس في أمر الله بالانهماك والانهمال، والتدرج في مناقل التغيير بما لان له مركب الاستهانة والاستسهال، رأينا ما لايسع الاحتمال فيه، ولا يبرأ من درك التحرج في أرجاء تداركه وتلافيه، ولا يؤدي حق الاستحفاظ والاسترعاء بإقرار ما يبطله الحق وينفيه، وإن المماشاة في ذلك وهن لا يقبله الله في دينه ولا يرتضيه، وإذا نصب الله معالم الهدى، ولم يخلق الامة عبثا ولا تركهم سدى، بل جعل كلا بما وجه اليه من أمر ونهي مكلفا متعبدا، وأقام لهم فيما يأتونه ويذرونه رسما لا يحيل ولا يستحيل مذللا بسلوكه معبدا، فما هم والتخلي مع الاهواء ومخالفة الافئدة الهوى والرضا لهم بما رضوا من الاقامة بدار المضيعة والندا. وأمر الله لايدع، وحكمه يكف ويفرع، وله –جل جلاله– قومة بدينه يزع بهم ما يزع، يسوون ويعدلون، ويقضون بالحق وبه يعدلون، وما زلنا نعرض الذكرى بينة، ونهدي الكلمة لينة، وندعوا إلى سبيل الله بمقتضى المدعاة الواجبة المتعينة، وننتظر بالمسوف ارعواء عن الغي، وانثناء عن مدارج الملل واللي، وتحولا من القلب الميت إلى القلب الحي،

النفوس بزمام هواها منقادة، وعلى ما ألفته قدما من أسوء عادة، تتحط في شعب حياحها، وتطغى وقد أرخى لها الاغترار من شكيم مراحها، وتترك لايثار الفساد جانب صلاحها، وتصم أسماعها وقد قرعتها بما شاء التذكير أقوال إنصاحها، فتقضى أمر الله أن تقوم بحقه، واستدعى عهده الوفاء به في خلقه، وحمل هذه السائمة الهائمة على سبل الاعتدال وطرقه، وأبطأها مركب الطاعة على ما لابد فيه من عنف الاخذ أو رفقه، فتحركت بواعث الاعتزام، واستقلت باستعانة الله دواعي الاستغرام، وأخلص له –جل جلاله- مجرد القصد والالمام، واستوبق بما استقبل وتوجيه ما أمل تجديد مراسم الايمان ومعالم الاسلام، وان تورد موارد الشرع صافية النطاق رزق الجمام.

ولما انقسم الناس في المراد من إصلاح فسادهم وتقويم منآدهم إلى من استأثر بالمشاهدة عيانه، وإلى من بعد من المباشرة مكانه، وكان لكل من مساواة الحظ، وتقسم التفات اللحظ، ما يتوجه اليه بيانه، ويثنيه إلى ما يقصده من هذا الغرض وينتحيه زمام التناول وعنانه، أودعت أغراض هذا المقصد الكريم، ومناجي الدعاء إلى السراط المستقيم، الكتب الواصلة إليكم

وإلى سواهم من أهل الاقطار بما تضمنته من الاحوال، وضرب الاشكال والامثال، وتبين متروك الحرام ومأتى الحلال، وتنزيل القضايا الشرعية منازلها من الاحكام والاعمال، وتعريف مواقع الثواب لاهل الثواب، ومواقع النكال لاهل النكال, بما استوفى فيه الاداء، وتقصى الابلاغ والانهاء، ووقف عند غايته الركض والاجراء، وخفت بذلك عن كاهل الامانة وتقلد أمر الديانة الاثقال والاعياء، وأقيمت الحجة، وأوضحت المحجة، فلا متردم من القول يستلحق فيه الدرك والاستثناء، أو يحاول فيه التعقب الاستفحاص والاستقصاء.

ولما قضيت تلك الوضيفة بحالها، وسقطت عهدة احتمالها، أقبلنا الاشتغال على من إلينا وحوالينا من الموحدين وجميع القبائل لنأخذهم بمآخذ ذلكم التعديل، ونحملهم على نهج تلكم السبيل، ونساوي بين من بعد ودنا في الفعل والقيل، ونمضي مسطور تلكم الاحكام على مساوقة الفرض لها والتنزيل، ونعدم بسيف الحق آثار أهل التغيير والتبديل. ولما حللنا هذه الحضرة- حرسها الله- وهذا الغرض المبارك يتمكن مع مطالعة الاحوال

سببه، ويتقعد مذهبه، ويتطور في كيفية مآله، وموقف مجاله، نسبه ونصبه، ابتدأنا بالنظر في أحوال الموحدين وإحضار الجميع منهم بهذه الحضرة- عمرها الله- واستوفدناهم قبيلا قبيلا شعبا شعبا وقد تأكد العزم على القيام بأمر الله وإعادته على إدلاله وإحياء دارسه وإقامة عموده ونفي الخبث عن أرجائه وتصفيته من الشرب وانشائه خلقا جديدا ولا يكون ذلك إلا بإخلاص المقصد وإظهار الفعل وإمضاء الحكم وترك التلفت إلى الاقوال ووسائل الالسنة فشد ما ارتهنت بما لا وفاء عنده ولا ثمرة له. والتحق بهذا الاصل استدعاء جمل من كل قبيل من المصامدة وغيرهم ليقع العمل في الجميع وتصفى الموارد وترحض الادناس، إذ كان الفساد قد خالط النفوس ومازج القلوب ووقع به الاستئناس، وألفته الاهواء وحجت المناصحة فيه الاسماع ونسى كل ربه فأنساه نفسه وسقط رعي الحرمات وتنوسيت الذمم لاهلها والسوابق لاربابها. وفي أثناء هذا الاستدعاء أقبل أهل التوحيد على الاشتغال بنفوسهم والعكوف على قراءة توحيدهم وملازمة وظائفهم وافصحت لهم نصب الحال عن أمور من مثلها يأخذ الفطن حرزه ويستحضر إشفاقه ويتوقع

يومه وعندها ويتراءى الناظر مكان سقطاته، وموضع فرطاته، وتتخشى له منسيات ذكراته.

ولم تزل القبائل ترد أفواجا وتفد أقواما، وخلال التلوم باكتمالهم أخذوا بالقراءة والتعلم ومدارسة التوحيد وتحفظ ما تقام الصلاة به من القرآن. وكان لهذا الاخذ من كل طبقة وصنف عمل علت به الاصوات، وعظم الاثر وقد ظهر من مبادي هذه المنازع وانفراض هذه المقدمات، ما شخصت له الابصار، وجد فيه الاعتبار، وخامر منه النفوس الخوف المقلق والحذار، وسرى في قلوب الخاصة والعامة الايحاس لأمر من أمور الله والاستشعار، وتوقع ظهور آية تفرق بين المحقق والمبطل، وتميز الخبيث من الطيب، وتلبس كلا رداء سريرته، وجلباب طويته، وما ذاك ببعيد عمن أعرض عن الحق واتبع هواه، وأحل بعهده الذي عاهد عليه، واستبطن غير ما أظهر. ولله في هذا الامر العزيز أسرار مخبوءة، وودائع مكتومة، يمحص الله بها المؤمن، ويمحق الكافر.

ولما تكاملت أعداد الواصلين، وقد غصت بهم السبل، وعضل بهم الفضاء، افتتح باب العمل، واستعين الله تعالى، وابتدي بتطوير الناس على طبقات ثلاث يعرف بها كل واحد قدره، ويقف بها عند حده، ويعلم أين هو من مضماره، وتأخره أو بداره. فالطبقة الاولى هم السابقون الاولون الذين بايعوا الامام المهدي –رضي الله عنه- وصحبوه، وغزوا معه، وصلوا خلفه، والذين شاهدوا البحيرة وباؤوا بفضلها، واشتملوا ببردة شرفها، وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها، وشهد لهم بالفضل الذي لا يؤازي والرتبة التي لا تعادل. ويتلو هذه الطبقة من أمن بهذا الامر، ودخل في هذا الحزب، وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران. والطبقة الثالثة من فتح وهران إلى هلم جرا. وجرى –وفقكم الله- هذا التطوير على نظام أحكم فيه الوصف، ورتب فيه الوضع، وروعيت فيه الزلف والقرب، والمنازل المعلومة والرتب، والتفت إلى أحوال أهل الثبوت والنكوص، ومن تقاصر عن الكمال بالحظ المنقوص، على تحرير من النظر ووزن من العدل، عرف الناس بسيماهم،

ووقف بهم عند غاياتهم، وعلم كل مركزه، واحتل بمحطه، ووجد نفسه حيث وضعها العمل وأهلها السعي.

(هنا انتهى أحسن فصل في هذه الرسالة.)

الرسالة الخامسة:

كتاب عبد المؤمن الى الشيخ محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش صاحب شرق الأندلس يدعوه الى الدخول في دعوتهم وهي من انشاء الوزير أبي جعفر بن عطية:

من أمير المؤمنين-أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد- وفقه الله، ويسره لما يرضاه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العون لأوليائه والاقدار، وإليه يرجع الامر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار، والصلاة على محمد نبيه الذي ابتعثت بمبعثه الأضواء والأنوار، وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار، وخصم بحجته الكفر والكفار، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرين والأنصار، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي

المعلوم. القائم بامر الله حين غيرته الأغيار، وتقدم الامتعاض له والانتصار.

وهذا كتابنا إليكم- كتب الله لكم نظرا يريكم المنهج، ويلفيكم الأبهج فالأبهج، وآتاكم الله من نعمة الايمان، وعصمة الانقياد له والاذعان، ما تجدون به اليقين والثلج-من حضرة مراكش- حرسها الله تعالى- ولا استظهار إلا بقوته وحوله، ولا استكثار إلا من إحسانه وطوله.

ولما جعل الله الامر العظيم رحمة لخلقه، ومطية لرقيه وقرارة لاقامة حقه، وحمل حملته الدعاء إليه، والدلالة به عليه، والترغيب في عظيم ما عنده ونعيم ما لديه، وجعل الانذار والاعذار من فصوله المستوعبة، وأحكامه المرتبة، ومنجاته المخلصة من الخطوب المهلكة والاحوال المعطبة، رأينا ان نخاطبكم بكتابنا هذا أخذا بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء الى سبيله، والتحريض على اغتنام النجاة وتحصيله، وإقامة الحجة في تبليغ القول وتوصيله، فأجيبوا- رفعكم الله- داعي الله تسعدوا، وتمسكوا بأمر المهدي- رضي الله عنه- في اتباع سبيله تهتدوا، واصرفوا أعنة العناية إلى النظر في المآل، والتفكر في نواشي التغير والزوال، وتدبروا جري هذه الأمور وتصرف

هذه الاحوال، واعلموا أنه لاعزة الا بإعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال، ولا يغرنكم بالله الغرور، فالدنيا دار الغرور، وسوق المحال. وليس لكم في قبول النصيحة، وابتداء التوبة الصحيحة، والعمل بثبوت الايمان في هذه العاجلة الفسيحة، إلا ما تحبونه في ذات الله تعالى من الامنة والدعة، والكرامة المتسعة، والمكانة المرفعة، والتنعم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعة. فنحن لا نريد لكم ولا لسائر من نرجو إنابته، ونستدعي قبوله وإجابته، إلا الصلاح الاعم، والنجاح الاتم.

وتأملوا -سددكم الله- من كان بتلك الجزيرة- حرسها الله- من أعيانها، وزعماء شأنها، هل تخلص منهم إلى ما يوده، وفاز بما يدخره ويعده، إلا من تمسك بهذه العروة الوثقى، واستبقى لنفسه من هذا الخير الادوم الابقى، وتنعم بما لقي من هذا النعيم المقيم ويلقي. وأما من أخلد إلى الارض واتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الامر العزيز إلى ما سواه، فقد علم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة سوء منقلبه، وخسارة مذهبه ومطلبه، وتنقل منه حادث الانتقام أخسر ما تنقل به.

وحق عليكم-وفقكم الله ويسركم لما يرضاه- أن تحسنوا الاختيار، وتصلوا الادكار والاعتبار، وتبتدروا الابتدار. وماحق من انقطع إلى هذا الامر الموصول الواصل، وأزمع ما يناله من خيره المحوز الحاصل، أن يناله منكم شاغل يشغله عن مقصوده، ويحيط به ما يصرفه عن محبوبه ومودوده، فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية حين إعلانكم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الامر السعيد، ما كان. ثم كان منكم في عقب ذلك ما اعتمدوه في أمر أهل لورقة- وفقهم الله- حين ظهر اختصاصهم، وبان إخلاصهم، وليس لذاك وأمثاله عاقبة تحمد، فالخير خير ما يقصد، والنجاة فيما ينزح عن الشر ويبعد. وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالى نظر موفق، ومتاع محقق، ويجدبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذب يسعد، وسائق يرشد. والله يمن عليكم بما ينجيكم، ويمكن لكم في طاعته أسباب تأميلكم وترجيكم، بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

الرسالة السادسة:

رسالة وهي عديمة الرأس لبتر وقع في المخطوط المنقول عنه:

وهذا كتابنا- كتب الله لكم ملء القلوب، من الاضاءة والتنوير، وكفاء الظواهر والغيوب، من التخليص والتطهير، وأعاذكم بعصمته من تقلبات التبديل والتغيير، ونجاكم برحمته من موبقات التفكير والتقدير –من حضرة مراكش- حرسها الله- ونحن نشكره سبحانه على ما وطأ أمره العزيز ومكنه، وأضعف به كيد الشيطان وأوهنه، ومهد بإثارته هذا القرارالامين وأمنه، فلله –عز وجل- في كلاءة هذا الامر المحفوظ وحراسته أسرار يمكن الايمان تصفحها واجتلاؤها، وأقدار يبسط الدعة والامان اختيارها وابتلاؤها، وآثار يبعد بها عن مبلغ الاعداء ومدارك الاشقياء سمو هذه الدعوة واعتلاؤها، وهو أمر الله الذي لا يضره مناويه ومخاذله، وعهده القوي الذي لا يناله أوباش الظلم وأراذله، وكلمة الله التي لا يثني المؤمن عنها عاتبه العتي وعاذله.

وقد تجدد الآن من نصر الله وفتحه، ما تعجز القوى البشرية عن شرحه، وتظهر العناية الربانية في بذله ومنحه، وإن كانت العبارة بأوائل ذكره مستنفدة، والنعوت والاوصاف في حقه منحطة إلى أرض القصور مخلدة، ففي إلقاء الممكن من حديثه مجال للاعتبار، ومنال لعزيز الآمال والاوطار، ومآل لناشيء التيقن والاستبصار، وماهي إلا آيات بينات غشي العالم نورها، وحقائق جليات اضمحل لها إفك الكفرة وزورها، وجنود معنويات برز لنصر هذا المحسوس النفيس محجوبها ومستورها.

وذلكم أن الاشقياء فلانا وفلانا وأصحابهما كانت نفوسهم الخبيثة كامنة على أذاها، وعيونهم السخية نائمة على قذاها، وفطرهم الفضة ناشئة بما مدها من الغلظة وآذاها، ولم نزل بعد الامام المعصوم، المهدي المعلوم –رضي الله عنه– من أول هذا الزمن نحملهم في حجر الكفالة والكفاية، ونجريهم بمجاري العناية والحفاية، ونسعى في تدريجهم على مدارج المعرفة والدراية، ونأخذ بأيديهم وهم يخرون على وجوههم الغاية بعد الغاية، ونرى وصل أرحامكم التي قطعتها شقاوتهم من جملة ما يجب لحرمة المهدي –رضي الله

عنه- من الحفظ والرعاية، وهم خلال ذلك أغمار لا يفهمون، وسوائب لا يقفون عند حد ولا ينتهون، وهمل يريدون التصرف في المنكرات بما يشاؤون ويشتهون، دأبهم استخلاص الفسقة و واستصحاب الخونة من حثالة الناس والسرقة، والاسترسال في مذاهب الانعام المرسلة المطلقة. ونحن مع الاخذ بأيديهم، وكفهم عما يرديهم، نرجو ان شعب الجنون من شبابهم تسكن، ومستأنف الاحوال من قبيح آدابهم يحسن، ودائب الرفق في عتبهم وإعتابهم يدرب ويمزن، وسابق الشقاء مع ذلك يستتبع فيهم لواحقه، وينصب بينهم وبين السعادة قواطعه وعوائقه، ويحمل آرائهم المنقومة، وحوادثهم المذمومة، حوادثه وبوائقه. فلا يلحظون جهة من جهات التقوى بطرف، ولا ينتفعون من كلمات التذكير وحروف التنبيه بكلمة ولا حرف، ولا يتعرضون لقبول الله بشيء من أعمالهم في عدل ولا صرف، حتى انتبذوا عن أمر المهدي —رضي الله عنه- بالغراء، واتخذوه وراءهم ظهر بجانب الابعاد والاقصاء، وصارت حرماته عندهم منتهكة، وأماناته مستهلكة، بيد الغصب والاعتداء، وأظهروا عورة ما استطيع سترها بوجه من وجوه الستر الشرعي والاغضاء، وكلما

ارتفعت أسنانهم إلى أطوار الكهول، وخيلت هيئاتهم وأبدانهم انهم في حد أولي الفهم والعقول، هوى بهم حرمانهم في غيابات الغفلة والذهول، واجتاز بهم شيطانهم إلى حضيض الجور والنكول. واقترن بهم من قرناء الرجس، وشيطان الانس، من كان يلقي إليهم زخرف القول غرورا، ويعدهم بما يوهلون له جذلا بنيله وسرورا، ويريهم نهز الغفلات، ذهابا بهم إلى المهلكات, ومرورا.

ومع ما كان الامر يتوسع لهم من الارزاق المنعمة، والخيرات المتممة، والمنازل المكرمة، والخيل المسومة، فلم يكن مستطابهم إلا غلولا يحترقون بناره، ويتطوقون بعاره، وينطلقون في أنجاده من تهاوشه وأغواره، والنصائح أثناء أحوالهم، وإزاء أهوالهم، تروم امحاءهم من سكرتهم، وإقالتهم من عثراتهم، فلا يزيد الارشاد إلا غيا، ولا تسمع الموعظة من حيهم ليا، حتى تفاحش منكرهم، وتطابق مظهرهم الخاسر ومضمرهم، ولم يقفهم عن محارم الله تعالى ما يقف أهل المروات ويزجرهم. فلما أشرف على دائهم الاعياء، وتجاوزهم الاستهتار والاغواء، ولم يردهم من خبائث إرادتهم الخوف ولا الحياء، هجروا قصد التأديب بالهجر، ووقفوا موقف الردع والزجر،

واحتملت المشقة في التماس ما عسر من تعليمهم وتقويمهم رغبة في المثوبة والاجر، ثم لوحظت رعاية ذمامهم، وثنيت القلوب على جانب استعطافهم واسترحامهم، واعتقدوا الصدق فيما ادعوه من التوبة لاحتقار آثامهم، وبين لهم أن الذي يثبت به شرفهم، ويرعى معه اولهم السابق وسلفهم، إنما هو الاستمساك بعروة الدين، واتباع أمر المهدي- رضي الله عنه- على الثلج واليقين، والتأدب بآداب الطائفة الصالحات في كل الاعمال والشؤون. ونهوا عن مخالطة الاوباش، ومداخلة أهل الانزواء إلى باطنهم والانحياش، فأظهروا الاعتزال عما كان المتاب منه، ثم عادوا على إثر ذلك لما نهوا عنه، وتردد الردع لهم والزجر وتريد الشرك والقرع، وتمكن في تعريفهم، لتبديلهم وتحريفهم، الايضاح والصدع، وهجروا مرة بعد مرة، فعادوا إلى سيئاتهم كرة على كرة، واستبطنوا من سحرتهم وكهانهم شر فئة وأسوأ عترة، وترددت عقولهم المعقولة بين نفاثة في عقدها، وعاكف على ارتكاب القرانات وترصدها، وحاكم على غيب الله بخروج الاشكال من الاشكال وتولدها.

فاستمر تخبطهم في مسالك العطب، وتورطهم في طلب وعدهم المرتقب،

وزين لهم ما في استهواء الناس بمنصبهم، ودعائهم في السر إلى اعتقاد مذهبهم، وناجاهم على ذلك من شيطانهم جمع، وألقى إلى حديثهم المفتري نصر من المذنبين وسمع، والامر إذ ذاك عندهم على استتار واحتجاب، وهم من العثور عليهم وتوجه النقمة إليهم في شك وارتياب، وعندنا من تحسين الظن بالكافة غاية ما يمكن، ومن معاملة الجمع بالجميل ما يجب لله تعالى ويتعين، والاشقياء المذكورون لا يرون الاحسان أحسانا، ولا يتزيدون مع الرفق بهم ورجاء الخير فيهم إلا نفاقا وطغيانا، والآيات تسمع وتتجلى فلا تلقى منهم إلا صما وعميانا، ونار الحقد في جوانحهم تتأجج، وسموم الغل تتمشى في أعضائهم وتتدرج، وهم من تزيد الكرب وتأكد الهم بما يسر هذا الامر العزيز ويبهج.

فلما كانت الغزوة التي فتحت فيها بجاية وسائر تلك البلاد المشرقية وظهر من نصر الله هناك العجب العجاب، وتأتى بها من غرائب التسهيل والتيسير ما بهر العقول والالباب، ثارت كوامن حسدهم تطرق وتنتاب، وأنفرت حيات إذايتهم تنسل وتنساب، وسلكوا في التحريب والتخريب مسلكا

لا يشك فيه ولا يرتاب. وكان لهم في الشقي فلان عمدة كبرى، وعدة أجرى لها القدر من حكمه المسأصل ما أجرى، فاطلع الله على سره الخبيث قبلهم، وصرم بانتقاله حبله وحبلهم، وتعجل إليه النظر المتدارك فقيده وعقله، وطرقه الامر المعاجل فاستاقه ونقله، وأقام في السج إلى أن كان الاياب إلى هذه الاقطار، بحكم الاستحسان والاختيار، وأوضح الله عند ذلك من بواطن أولئك العادين الماكرين، وسائر أولئك المنافقين الكافرين، ما توالى على وضوحه وظهوره حمد الحامدين وشكر الشاكرين. فنظر بعون الله في إطفاء نورهم قبل اشتعالها، وقطع موادهم فبل تسربها واتصالها، وجز رؤوس الفتنة عند صراخها واستهلالها. وقتل فلان بن فلان ومن جرى مجراه في الشقاق والنفاق، وتقبضت على الباقين منهم يد الاسر بعد الاثخان وشد الوثاق، واقتضى الابقاء والاملاء في الشقيين الباقيين فلان وفلان وتأخيرهما بقدر الله عن ذلك المهلك، والعدول بهما إلى سبيل النجاة من ذلك المسلك، على تيقن من فسادهما، وخبث اعتقادهما، وانبعاثهما إلى أسباب نفاقهما وارتدادهما. وأقاما بهذه الحضرة-حرسها الله- في قيد الغفلة، وفترة المهلة.

ثم ظهر أن الغاية القصوى في التجاوز عن عظيم ما اجترحا، والتغافل عن مؤلم ما تمنيا واقترحا، أن يرسلا من عقال الاعتقال ويسرحا، واختير لهما سكنى فاس-حرسها الله- بجميع أهليهما وبنيهما لينزلوا بقرارتها خير منزل، ويكونوا لتمييز أحوالهم هناك بمعزل، وأمر لهم بما يقوم بهم من المؤاسات، والمحترث والجنات، والتفت فيهم جانب الرحمة والحنان كل الالتفات، ليبلغ الحجة عليهم منقطع الآماد وغاية الغايات. فكانوا هنالك تتجافى جنوبهم عن مضاجعها، وتترامى قلوبهم إلى مساقطها المردية ومواقعها، وتتراءى غيوبهم في محالها من الافتتان ومواضعها. وتسلل إليهم من أشقيائهم متكهن جرى منهم مجرى الدم، ولاصقهم في عقر ديارهم ملاصقة الالصق الالزم، وزادهم خبالا إلى خبالهم في روم الهجوم والتقحم.

فلما سار الموحدون- أعزهم الله- إلى رباط الفتح- عمره الله- واتفق هنالك من عقد هذه البيعة السعيدة ما اتفق، وتم أمرها بحمد الله على ما أجمع عليه الملأ وأصفق، طرق الاشقياء المذكورين من قاصمة ظهورهم ما طرق، واشتعلت لها نار الحسد بين ضلوعهم فالتهب شواظها واحترق، وأتاهم

من حلولها في نصابها، وقطع آمالهم من اختلاسها واغتصابها، ما أراهم سقوط أرواحهم الخبيثة بمركز قيامها وانتصابها، وحلول القارعة بأفئدتهم الفانية بآلام الحسرة وأوصابها. وكان لهم من أوليائهم في الغي من يريهم الفرصة في هذه الحضرة –حرسها الله- بمعرض الانتهار، ويمد إلى وعدهم المكذوب أكف الاقتضاء والاستخبار، ويروم الخروج بهم عن خموله وذلته إلى حين الظهور والاعتذار. وكانت المكاتبة بينهم وبين كثير من النافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر، ويستبطنون الغوائل والغوائر، بأن يكون ورودهم على هذه الحضرة –حرسها الله- بغتة تفجأها، وعلى حين غفلة لا تمهلها بزعمهم ولا ترجيها، ولم يعلموا –وقمهم الله- أن وقاية الله هي التي تعصم، وأن عروته الوثقى لا تفصل ولا تفصم. فسار إليها الاشقياء المذكورون من فاس، والحين يريهم كل تخيل فاسد وقياس، ويوهمهم وقد طبع على حواسهم أن ليس في مغالبة الله من باس، ومروا بنظير وما يؤازيه على تلك السبيل من بلاد صنهاجة فوجدوا هنالك من أعداء الله من أضافهم وزودهم، وأجراهم من البر بهم على ما عودهم. فتمكن اغترارهم، وتوجه استعجالهم وابتدارهم،

ووصلوا خارج هذا القطر –حرسه الله– وقد تعلق بأهداب الليل نهارهم، وتأتى احتجابهم بظلامه واستتارهم، فدخلوا عندما مضى منه هدء، وغشيهم من زمانه بدء، فقصدوا الديار التي كانت لهم ولقرابتهم فاحتالوا أوساطها، واستغشوا أوباشها وأخلاطها، وتوخوا لمتوصل غدرهم مربطها بهذه الحضرة –حرسها الله– ومناطها، وباتوا ليلتهم تلك واثقين على ترتيب أمرهم المختل، متوكلين على أولئك المنافقين بذلك الربط المنحل، ورأوا بما اعتقدوه من تيسير الفتك وتأتيه، أن النهار أبسط لقصده وتوخيه.

وعلموا أن الشيخ الشهيد أبا حفص عمر تفراجين –رحمه الله– كان العامل على هذا القطر والناظر فيه، فقصدوه عند خروجه إلى الجامع وقد أعد لصلاة الصبح عدة المخبت الخاشع، وأجاب التثويب إجابة السامع الطائع، وارتدى من الطمانينة رداء الساكن بقرارها الراتع، فهجموا عليه فاغتالوه بأيديهم عند لقائه، وتركوه مقتولا في سبيل الله بحياته الدائمة وبقائه، وركبوا خيلهم التي تسابقت بهم إلى مصارعهم، وأوردتهم على قواصمهم وقوارعهم. فجالوا بها خلال الديار، ونادوا أثناءها بالاعوان

والانصار، وألقوا إلى مواعديهم الاخسرين أبصار الاتقاب والانتظار، فعاجلتهم بواطش الاقتدار، وفضحهم بمرأى البوار والخسار ضياء النهار. ورأى الناس أنهم الاشقياء الذين تبين اعتقادهم، وتراءى لهم قيامهم بالليل واستبدادهم، وتبرأ منهم الشيطان إذ تحصل لهم كفرهم وارتدادهم. فالتفت إلى قتالهم العامة، وجلت بهم الصاخة والصامة، وأسلمتهم لعواقب الحين الشيعة والحامة، وقتلهم من جنود الله من لا يعرف، وحاق بهم من بأسه سبحانه ما لايرد عن القوم المسرفين ولا يصرف، وأطفأ الله نارهم في مثل ارتداد الطرف، وصرف بأسهم عن الذين آمنوا بألطف وجوه الصرف، ولم يكن بين رويتهم على متون السوابح، ووقوع نحورهم وحلوقهم على غروب النواحر والدبائح، إلا مقدار نظرة الناظر ولمحة اللامح. وأبرزوا هنالك خارج المدينة بقاع قرقر، تلفح وجوههم من عذاب الله كل ريح صرصر، مرتهنين بآثامهم، مسلمين بإسلامهم لاسلامهم، منكوسة ذوائب هامهم بين أقدامهم، تخطب العبر بأفنية إفنائهم وإعدامهم، ويفصح الحق أنهم المفردون يوم يدعى كل أناس بإمامهم، لقد كان في قصصهم عبرة لولي الالباب، وآية تجردت في

محو آثارهم عن ظواهر الأسباب، وفاتحة طرحت أشعة نورها وأبقت آثار

تطهيرها على أخريات الاحقاب والاعقاب.

ولما اجتمعنا -وفقكم الله- بهذا القطر الذي نفى الله خبثه، وخلصه مما ألقاه الشيطان ونفثه، نظر بعون الله في موجب البحث والتنقيب، ونيطت بأنقاب الامر طلائع الارصاد والترقيب، فأعثر الله على غواة الاشقياء ودعاتهم، وأطلع على غيوب المنافقين وطوياتهم، وانبعثت إليهم طوائف الانتقام من خواصهم وذواتهم، وتقبض على من عرف بآذانهم قواعد الفتنة وأصولها، ورؤوسها التي تمكن بها وجود الغرة وحصولها. وكان حكم الله فيهم حز رؤوسهم من أجسادها، وتصيير نفوسهم إلى سوء مصيرها ومهادها، والغزو فيهم متصل مع الايام، والبحث قائم على جانب الظن والاتهام.

والحمد لله الذي جعل لاوليائه عقبى الزمان، وظلل عليهم غمام الانعام والاحسان، وحمى بحمايتهم قبة الاسلام والايمان، وأوقع مخالفيهم ومخاذيلهم في حبائل الخلاف والخذلان، وأولى من هذه النعم الممدودة، والحظوظ المجدودة، ما شكره فرض على الاعيان. فسارعوا إلى شكرها -

رحمكم الله- مسارعة الاصفياء الخلصان، واستبشروا فقد مدت عليكم أجنحة الدعة والامان، وإياكم من عباده العارفين بمواقع النعم، العاكفين على انتهاز فضله المغتنم، الواقفين بطاعته مواقف أمره الملتزم، إنه ولي الطول والكرم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرسالة السابعة:

من أمير المؤمنين- أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الشيخ أبي محمد وسنار، وجماعة أصحابه الطلبة والمشيخة والاعيان والكافة من أهل مراكش- أكرمهم الله بتقواه، وأعانهم على شكر نعماه — سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي تكفل بوعده الصادق إتمامه وإنجازه، وتحصل لحزبه الآخر السابق إعلاؤه وإعزازه، وتقلقل في عدوه الفاسق المارق قهره وإعجازه، والصلاة على محمد نبيه الامين، الذي أظهر على حقه المبين، إظهاره وإبرازه، والتفت على أمره المكين، صدور العلاء وأعجازه، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، الذي تجلى بهم تعين الاسلام وامتيازه، والرضوان المستدام عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، موضح سبيل الرشاد حين عم استغواء الشيطان واستفزازه، ومنجح أسباب الارتياد إذ تيسر اغتنام المطلوب وانتهازه.

وهذا كتابنا إليكم- كتبكم الله من عباده الشاكرين في الرعيل الاول، وعرفكم عوارف الصنع المنيف بكم على المحبوب المؤمل، ولا أعدمكم بوصل الاستيلاء، وإدامة الاظهار والاعلاء، عزة حاملة على سنامها المذلل، شاملة بغمامها المضلل، عاملة على تمامها المكمل —من حضرة تلمسان- حرسها الله- وقد تعالى فتح الله أن تحيط به الاقوال، وتجاوز ما تطمح نحوه الآمال، ويتناهى إليه الطلب والسؤال، وعلى الرؤية والمروى فما البديهة والارتجال، وانتشر على البلاغة والادراك فلا التقسيم ولا الحصر ولا التفصيل ولا الاجمال، ومع اعتماد التحقيق، وارتياد التصديق، فما الامر مما يدرك بنعت ولا ينال.

وقد تقدم إليكم- وفقكم الله وأعانكم على شكر ما آتاه- من ذكر ما تحملته الاشارة والالماع، ولهذا الكتاب التالي، الذي من شأنه برزت الايام والليالي، نبذ قررها الاصفاق والاجماع، وبشر انتهت عند أولها الاماني والاطماع. فقد كان صنع الله في افتتاح هذه البلاد الشرقية على ما تقدم ذكره من التناسق والتتابع وتذليل الصعب وتقريب الشاسع، وإراحة النفوس

بإزاحة القواطع والموانع، وهذا الامر العظيم في درجاتها يستعلى، وعلى غاياتها ونهاياتها يستولى، وببركات باسطة في الوجود، وحائطة على الرسوم الشرعية والحدود، يستتبع نواشي النماء المزيد ويستتلى، حتى جمعها بجوامع القهر، وأنطق فيها لسان الايمان إنطاق الاعلان والجهر، وصير غرائب التفسير فيها آيات بينات على باقيات الدهر، ومن يرتضع أشطرها من الاعراب، ويودع أعمرها دواعي الجلاء والخراب، قد قذفتهم الغلبة حينئذ إلى صحرائها، ونبذتهم الروعة بعرائها، وحدثتهم حال الكرة المهدية عن كماتها وضرائها، فصاروا بين تدافع الحيرة والتيه، وتراجع التخييل والتمويه، مظهرين الانابة إلى المتاب، متكررين في أكثر الاحيان على مراتب الشك والارتياب. وعساكر الموحدين المتقدمة إلى فتح القلعة وقسنطينة –حرسها الله- مخيمون على إشعال تلك الجهات بإزائهم، حريصون على غزوهم في عقر مواقفهم ومراقب انتزائهم، راغبون في الاذن لهم بمسؤولهم، ناظرون إلى منشآت خيال الضالين وتخبيلهم. وهم –آخذهم الله- في خلال ذلك يوالون المراسلة على معنى المخادعة، ويخافون عقبى المصارمة والمقاطعة، ويترددون

في التقدم والتأخر مع الانقياد والمنازعة واضطرابهم في أحوالهم تلك مستوضح، وارتيابهم مع ظهور الجلاء ممقوت مستقبح، والامن مع ذلك يتفقد الموحدين المذكورين بالتأكيد عليهم في الاضراب عنهم وإن سفهوا، والالباب على تنبيههم لينتبهوا . ورسائلهم ورسلهم أثناء ذلك تقابل عندنا، فعادة هذا الامر العزيز هي الاحتمال والاجمال، والرفق بالجهال، ومقابلة البعيد الصعب بالتقريب والاسهال لتشملهم التوبة بحسناها، وتقابلهم الرحمة بأكرم وجوهها وأسناها، وتتناولهم كلمة التوحيد بلفظها ومعناها، إذ لا مراد من أهل الدنيا إلا توبة يصدقونها، وعقيدة بالايمان يحققونها، ويد بالطاعة يمدونها إلى الشريعة ويلقونها .

فلم يرد الله إلا أن يكون هؤلاء الاشقياء ممن تقذفه الهلكة إلى سحيقها، وتتقسمه النقمة بأيدي تبديدها وتمزيقها، وتنصبه العبرة على منزوحة سبيلها وطريقها، لأنهم كانوا خلال ما ذكرناه لكم من أحوال استئلافهم، والتبصر على حفاتهم وأحلافهم، وإمساك الموحدين عن مقدورهم من تدميرهم وانتسافهم، يخاطبون جميع من ببلاد إفريقية وما يتصل بها إلى

جهات الاسكندرية من العرب المغمورين بغوامر الجهالة، المغرورين بأوامر الضلالة، مخاطبة الاستصراخ والاستنجاد، ويراسلونهم مراسلة الاستعانة والاستمداد، ويستدعونهم لمعنى الانتصار على الموحدين والاعتضاد.

فحين شاء الله أن نحق عليهم كلمة العذاب، ونشق إليهم مهامة ذلك اليباب، عند العزم على هذه الحركة الميمونة لمعنى الانصراف والاياب، أتت بالحائمين أرجلهم، وعجل إليهم بالدمار تعجلهم، وأسرع بهم الويل لا يؤخرهم عن ميقاتهم ولا يؤجلهم. وأقبل جميع من ذكرناه لكم من أعراب تلك البلاد النازحة قبائل هلال بن عامر من عرب اليمن، وشعوب الحروب والفتن، بقضهم وقضيضهم، عاملين على إغواء إخوانهم الضالين وتحريفهم، نافرين أفواجا بعد أفواج بغاية عزمهم ونهاية نهوضهمو حتى التقى المصرخ والمستصرخ، وقعد الشيطان على نحورهم أجمعين يتبن وينفخ، وألقى في قلوبهم المظلمة أن يكون جيشهم الذي يدوخ، وأراهم أن الجميع مروع بهم روعا لا يسكن ولا يفرخ، وزين لهم سوء أعمالهم والله يكتب ما يعملون ويستنسخ.

فلم تزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد، وكتائبهم تتعاقد على الاعترام

وتتعاقد، وأمدادهم التي غصت لها تلك المشارع المعينة والموارد، تتناصر على رأيها الخاسرة وتتعاضد، إلى أن انتهوا ما لا ينتهيه العد خيلا ورجلا، وعمروا أنجاد تلك الارض وأغوارها وعرا وسهلا، فما استطاعتهم حملا، ولا وسعت أن تكون لهم قرارا ولا أن يكون لها أهلا. والموحدون الكائنون إذ ذاك هناك مقبلون على ما أمروا به من ارتحالهم إلى العرب وانتقالهم، والكف عن معارضة أولئك الخاسرين وقتالهم، فزادتهم تلك الحال الظاهرة اغترارا و واقتضت عندهم عفوكا على الطغيان وإصرار، والاقدار تجرهم برسن الاهمال إجرارا، وتطوى في صدر الزمن مخبئات من الامتحان وأسرارا.

فكلما رحل الموحدون المذكورون إلى مأمهم مرحلة رحل الضالون على أثرهم, وعملوا على شاكلة تخيلهم الذميم وتصورهم، واعتقدوا مصاقبتهم في المحال، وتمكنهم من ذلك السعي الضال، قدرة من قدرهم، ونتيجة من نتائج آرائهم ونظرهم، بوادي الأقواس بجهات سطيف –عمرها الله- ورأوا أن الاشقياء المذكورين يلازمونهم ملازمة الظل، ويرادفونهم على الترحال والحل، وأن الحال تقتضي مناجزتهم ومفاصلتهم، وتوجب مقارعتهم على دين الله

ومقاتلتهم. ولم يجدوا دواء يشفي من دائهم العضال، ويستوفي الاراحة منهم في تلك الحال، إلا العزم على جهادهم بعد الاعتماد على ربهم والاتكال، فخاطبونا بعزمهم على ذلك، وأعلموا بصورة أحوالهم هنالك، وعرفوا بكونهم عند مخاطبتهم المذكورة ناظرين في غزوهم، مجيلين في لقائهم بعون الله تعالى أعنة عدوهم.

فكان من التوفيق الممنوح، والرأي السالك إلى السداد سبيل البيان والوضوح، إنفاذ جمل مباركة وأعداد مسددة من عساكر الموحدين —أعانهم الله- إلى الجهات المذكورة على وجه الاستظهار بحركتها، والاستكثار من بركتها، ونحن إذ ذاك بمتيجة —عمرها اله- على سبيل الصدر، وحالة المعلن المقدر. فبذل الموحدون الناهضون إلى إخوانهم جدهم في السير، ورجوا نيل حظوظهم من ذلك الخير، فلحقوا بهم —أعان الله جميعهم- على المرغوب والمرجو، وأطلوا على جنابهم إطلال الظهور والعلو، وكان الاتصال بفضل الله قبل مناجزة ذلك العدو. وألفوا آجالهم —أعانهم الله- على غاية من الاستشراء، ونهاية من الاسترسال على تلك الاذراء، واجتمعوا على بركة الله

اجتماعا أحمدوا عاقبته، وقصدوا ملاحظة أمر الله تعالى ومراقبته، ودارت بين الموحدين –أعانهم الله- مواعظ التذكير والتذكر، وتقررت عزائمهم على نصر كلمة الله كل التقرر، وحسن المتاب ورجي الثواب للأمد المضروب والميقات المقدر، وقصدوا أعداءهم بعد الاستعانة بالله والتوكل على نصره المؤزر، عندما أشرقت شمس الضحى، ونصبت رحى الحرب فكانوا قطب الرحى، وانتحى من نصر الله وفتحه القريب من حزبه المظفر ما انتحى.

ولحين ما عاين أعداء الله قصد الموحدين على مضاء الاعتزام، وباشروا آثار الارتباط الايماني والالتزام، راموا فحيل بينهم وبين المرام، وتخيلوا الاقدام على ثبت الأقدام، من مدارك أمثالهم من الطغام، وأشكالهم من الاوباش الليئام، فلم يغن عنهم عمل الاوهام، من هول ذلك المقام، وأحدق نصر الله بأوليائه إحداقا جمعهم على أقطاب الالتيئام، وأودعهم خلال البررة الكرام، وكانت للكافرين دفعات جاهلية عادت بها عليهم عوائد الانتقام، والتقمتهم الحرب الزبون عندها أوحى الالتقام، وكابد ذلك الهول الكبار جميع فرسانهم وأعيانهم، ومن يدعي البطالة والحماسة من أمرائهم وكبرائهم،

فالتقت عليهم حلقتا البطان، واستقبلت بهم تلك الهزيمة الشنعاء جهات تلك المراحات والاعطان. فاختلطوا بمواشيهم اختلاط الانعام بالانعام، وأزعجت أوساطهم إلى حواشيهم إزعاج الارهاق والارغام، وفرقوا –ولا حول ولا قوة إلا بالله- تفريقا بع الاجتماع ونثرا بعد الانتظام، وأخذت المنايا تلتقطهم، فتنشرهم على الارض وتبسطهم، وتريهم ان الغواية توقع الغاويين وتورطهم.

واستمر القتل فيهم والاتباع لهم من أول ذلك اليوم المبارك إلى آخره، ولم يسر الموحدون فيه –على ما ذكروه- إلا بين إبل راتعة وسائمة، وخدور على عمدتها منصوبة قائمة، وأبقار وأغنام لم تحط بها الابصار، ولا قيدها في عيون الناظرين التناهي والانحصار. وغير ذلك من أنواع الأنفال، وضروب المغانم التي لا تجري على حكم التمثيل ولا الامثال، حي إلى جنب حي، وشيء متصل بشيء، مسيرة أربعين أو خمسين من الاميال.

فبأعداء الله ما بهم من قتل مفن، وانهزام مبعد وحمام مدن، وانصرام بكل صارم ماض وانتظام بكل ناقد لدن، غشيتهم تلك الغواشي الغوامر، فذل لها المأمور منهم والآمر، وحاق الويل بهلال بن عامر، أقل الهلال وخرب العامر.

ولم يحل بين سيوف الموحدين، ورقاب الفل من أولئك المفسدين، إلا ليل أجنه بغسقه، وطواه على أخريات رمقه.

ثم انقسمت جيوش الموحدين –وفرها الله– صبيحة اليوم الثاني إلى أقسام أخذ كل قسم منها سبيلا غير سبيل غيره، واستقبل ما يستقبله الطالب المجد من قصد مرارمه وإعداد سيره، فمنهم من غاب عن المجتمع، وجد في ذلك الاتباع والتتبع، أربعة أيام وأكثر وأقل كل يغزو ويغنم، ويجول في تلك المهامه الفيح لا يني ولا يتلوم، حتى انتهوا إلى أوائل بلاد إفريقية وما يجاورها، لا يرون لبقية المارقين أثرا، ولا يجدون محدثا عنهم ولا مخبرا. ثم آبوا بفضل الله ورحمته ومعهم من الأنفال المضافة إلى ما تقدم ذكره، والغنائم التي يتضائل لها عد كل عاد وحصره، ما لا يعبر عنه بعبارة تحديد، ولا يتوهم متوهم أن وراءه في الكثرة من مزيد. وأخذ الموحدون –أعانهم الله– بعد اجتماعهم على مركزهم، وظفرهم بمحبوبهم وبمنجزهم، يضمون من سبي الكافرين وغنائمهم وما أوبقته الحرب من خيلهم وسلاحهم ما لا يستطيعه الضم، ولا يتناوله الكثير الجم. ثم أخذوا في الحركة بما أقدروا على سوقه

من ذلك إلى هذه الجهات –حرسها الله– بعد أن لم يتمكن لهم بوجه من الوجوه عد ما تحملوه، ولا استولت إحاطتهم على ما نقلوه. وهم الآن –رعاهم الله– مقبلون بها على أتم ما تتعلق به الآمال البالغة، وتقتضيه الكرامة السابغة.

وأعلمناكم بذلك –أعزكم الله– ليعظم منالكم من هذا الفتح الذي طبق الآفاق حديثه، وملأ الابصار والاقطار منشوره ومبثوثه، ولتشكروا الله عليه شكرا يستنفذ غاية استطاعتكم، ويستنجد عزائم نشركم له وإذاعتكم.

والحمد لله الذي عمنا وإياكم ببركاته، ونصب على حقيقة هذا الامر الحق إلا من ادلة آياته، وجعل العاقبة لأولياء دينه المتين وولاته. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب مستهل ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

الرسالة الثامنة:

من أمير المؤمنين –أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين بسبتة- وفقهم الله وادام كرامتهم بتقواه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله فاتح الفتوح، وواهب الخير الممنوح، والصلاة على محمد نبيه الأمين النصيح، وعلى آله وصحبه الآخذين بأخذة المحض وقصده الصريح، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، القاطع بأمر الله آثار الكفرة من الاقطار المعمورة والمهامه الفيح، فإنا كتبناه إليكم- كتب الله لكم في طاعته سعيا متقبلا، وجعل الصلاح متبعا كتبناه لكم ومتقبلا- من حضرة مراكش –حرسها الله- ونحن نوالي بشكره سبحانه على ما يواليه سبحانه بأمره العظيم من إظهار دائم، وعضد بنصر أوليائه قائم، وإرداف حزب ظافر بحزب غانم.

وقد وصلنا –أكرمكم الله- بمخاطبتكم الاثيرة. فوقفنا على ماسنى الله تعالى لصاحبكم أبي محمد عبد الله بن سليمان وأصحابه النافدين معه في

القطائع- عمرها الله- حين ركبوا ثبج البحر غزاة في سبيل الله، مستمطرين

من ماء الرحمة على متون تلك الأمواه. فكان من تسهيل الله لهم ما كان، وظهر

صنعه الكريم لأوليائه وبان، واجتازوا بأهل مالقة والمنكب فأظهروا لهم أحوال

الامتناع، والاستعداد للدفاع، ما أظهروا، وأبدوا سلاحهم مجاهدين وشمروا.

ثم استخاروا الله على قصد المرية فألفوها قد أخذت باشعار أولئك الاشقياء

حذرها، وجمعت على دفع ما لايدافع من أمر الله أمرها. فصبحها أولياء الله

بكرة باكرتها بحتفها، وقطعت دون المدافعة ما قطعته من سيوفها وأكفها،

والكفرة الذين بها يرون مالم يستطيعوا من ضم شخاتيرهم وتحصيلها،

وتفريقها من وسقها ومحمولها، فلما أظلت عليهم تلك القطائع المباركة قاطعة

برومهم، قارعة لقلوبهم الخبيثة بهول صباحهم ذلك ويؤمهم، راموا التحصن

بالشخاتير المذكورة فملؤوها سلاحا ورجالا، وتخيلوا من رد أمر الله خيالا

فاسدا وضلالا. فبادر من بادر من الموحدين –أعانهم الله- إلى الحبال التي

وثقوا بها شخاتيرهم المذكورة في البر، واعتقدوا الاسناد اليه بها جنة من ذلك

الامر، فقطعوها قطعا بتا، وفتوا بصرمها عن البر أعضاد الكافرين فتا. فلما

عاين أعداء الله حبالهم أنكاثا، ولم يجدوا دون شفار الموحدين غياثا، بادروا التراسي في الماء، واغتنموا الفرار طمعا في الابقاء على ذلك الذماء. فاقتفى الموحدون بالقتل آثارهم، ووصلوا باللحاق المستأصل فرارهم، ودخلوا عليهم الباب آمنين، وتخللوا أثناء القطر المذكور- أعاده الله- لاستنفاذهم طالبين. فلما اخترقوا من أقطاره ما اخترقوا، وحرقوا من منشيئات الكافرين ما حرقوا، استأصلوا بالقتل كل ما أدركوا منهم ولحقوا، ورأوا أن وصولهم إلى المسجد الجامع هناك مدرك ما ابتدروا واستبقوا. ثم أخذوا على بركة الله في الانصراف إلى قطائعهم، والعود إلى مواضعهم واحتثوا على ما كان بالمرسى المذكور من الغراب والشخاتير وحرقوا ما لم يمكنهم جلبه، ولا توجه لديهم طلبهو وغنموا من تلك الآلات الحربيات ما أتى الوصف على ذكره، وأحاط الاعلام بقدره. وعادوا بفضل الله ظافرين بأربح تجارة، ظاهرين بأوضح علامة للنصر وإمارة. فالحمد لله الذي أيد وأسعد، ومهد لأوليائه من أكناف أعدائه ما مهد.

ووقفنا على سائر ما ذكرتموه وأعلمتم به من سؤال ذلك الوعد، والخروج به عن سبيل القصد، إلى غير ذلك مما يتبين من ذلك المضمر الفاسد والعقد، والله كفيل بقهر من خادع، وقاطع.

ووقفنا على ما ذكرتموه من وصول ابن مقدام إلى ما ذكر لكم من التعاون معكم في تلك الغزوة المباركة فألفاكم بحمد الله قد فزتم بربحها، واختصصتم بمنحها، إلى سائر ما يشتمل عليه كتابكم من الانباء، الجامعة لفصول السراء. فاشكروا الله تعالى على ذلك شكرا يكون لفضله مستزيدا، ورددوا ذكر آلائه ترديدا، واستديموا ببركة المهدي- رضي الله عنه- حظا من التوفيق سعيدا.

وأما ما ذكرتموه —أكرمكم الله- من أمر أولئك التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة وأمثالها فلتنظروا نظرا أكيدا في قطعهمو وردعهم، ولاسبيل لأحد من خلق الله أن يمد أحدا من تلك الاصناف بمادة حتى يتضح وجه ما ادعوه وتعرفونا بذلك ليرسم لكم ما تعتمدون عليه. وكل من أخذ حاملا إليهم مادة، فالسيف جزاؤه، والقتل من تلك العادة، دواؤه. فاعتمدوا —

وفقكم الله- على ما ذكرناه، واجتهدوا فيما أمرناكم به قبل هذا وألزمناه،

وكونوا على قدم الاستعداد، والمستعان الله. والسلام.

الرسالة التاسعة:

رسالة أمير المؤمنين عبد المومن بن علي إلى الطلبة والموحدين الذين بغرناطة كتبت في ذي القعدة سنة ***554*** هجرية، وهي من إنشاء أبي جعفر بن عطية:

من أمير المؤمنين ـ أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة والموحدين الذين بإغرناطة . أعزهم الله وأدام كرامتهم بتقواه . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حَمدِ الله الذي على عونه مستندُ الاعتصام، وعلى معارج تيسيره منعطفُ كل مَرام، وبحوله وقوته مُورَّك كل بدء من الأمور وتمام، وهو أهل الشكر والحمد على الإحسان المتتابع والإنعام؛ والصلاة على محمد عبده ورسوله موضح سبُل السلام، والمُبتعَث إلى الأحمر والأسود من كافة الأنام، وعلى آله وصحبه البررة الكرام؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المخصوص بالعلامات الصادقة والأعْلام، المبشر من ظهور أمره العلي،

وتعيينه المراد المعني، بما فاضت تباشيره، وسالت أساريره على صفحات الليالي والأيام.

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم تعرُّف الآلاء المستجدة، وبركة المواهب التي هي من بحر عطائه مُستمدة ـ من منزل الموحدين ـ أظهرهم الله ـ بظاهر (المهدية) ـ فتحها الله ـ ووعد الله لأوليائه قد فَض الإنجازُ خاتَمه، وبرَّز لياليه المخبوءة وأيامه، وأجرى بأعلى حزبه المفلح قضاياه الماضية وأحكامَه، وأخبر طائفة هذا الأمر الكريم وعامري صراطه المستقيم، من ثمرات هذه الحركات المشهود لها بميامين الأقدار، المُستنَّة في مِضمار الاختيار، ما بلغ فيه ـ والحمد لله ـ من إظهار دينه وتمْشية أمره إلى أفضل مأمول، ووقف منه على عناية الله الباهرة للعقول، المطابقة لمواقع المطلوب، من فضله والمسؤول، ولله تعالى في بركات هذا الأمر العزيز رحمةً على العباد ممدودة، وإشارةً في معنى العموم مقصودة، وإرادةً في حِياطة المُعْرِق والمُشْئِم والمُنْجِد والمُتْهِم موجودة مشهودة، ليُأخذ الأمرُ العزيزُ بمجامع الاستواء، ويُطبق بمطارِح

الأدواء، ظلم الأهواء، ويُعمها تصديقا للخبر، وتحقيقا لوارد الأثر، بالقسط والعدل على حد سواء.

ومازلنا أعزكم الله وهذه المطالع الشرقية مأَمٌّ الركاب، وإليها مرتقى الأسباب، والجهاد المظفرُ ينتابها من كل مدخل مبارك وباب، نلتفت من تلكم الجهة إلى العدوة الأندلسية -حفظها الله - بما يجب لها من الالتفات، ويجعلها الجهة المُيمَّنة وإن تقسمت العزائم من جهات، تمكينا لاستحداث العزم، واستئناف الأمر الجزم، إلى أن أرسل الله من فضل إنعامه، وصيِّب إخطاره وإلهامه، ما استُخير فيه تعالى فصدقت به الاستخارة، واستقلت به الأفكار المدارة، وأذِنت فيه بما انشرح له من الصدر بإيذانها مُقدمة البشارة، وهو النظر في اختطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق -عمره الله- مجمع البحرين، والقطب الآخذ بأطراف البرين، يختص بعون الله بهذا الأمر العزيز إنشاؤها، ويكون إلى إيجاده اعتزاؤها وانتماؤها، ويرتكز بفنِائها علمُ هذه الطائفة ولواؤها، وإنَّا لنرجو أن أشعة النصر لتلكم الجزيرة تثبتُ من مطلع هذا الشارِق والشاهِق، وتلمع في كل مطّرح بكل بارق، وتضمَّ إلى حزب الله

وفئته كل مُنافر ومفارِق، ويكون النظر المحتل بذُراه، المنعقِد بعُراه، مطلا إن شاء الله على المغارب والمشارق.

وقد قويت العزائم بحول الله على الاشتغال ببنائه، وعِمارة فِنائه، والأخذ في شأنه، وإعداده على مقتضى المدن المُحصنة المُحسنة لأوانه.

واستخرنا الله تعالى ووجهنا الشيخ أبا إسحاق بَّراز بن محمد والحاج يعيش- أكرمهما الله- للاشتغال بذلك على ما وادعناهما عليه وذاكرناهما به في كيفية الاشتغال، وصورة الاعتمال.

ولتجمعوا -أعزكم الله- ومن إليكم من الأشياخ الأندلسيين -أكرمهم الله- بهذا الجبل المبارك مع إخوانكم الطلبة الذين بإشبيلية ومن عندهم من أصحابهم والواصِلَيْن من قبلنا الذَيْن ذكرنا لكم توجيهَهُما ، وتنظروا في ذلك المكان بالنظر الحسن الجامع لمصالح المدن ومرافقها، وإجادة الاختيار وتوسعة الفَناء.

وقد خاطبنا الشيخ الأجل أبا حفص -أعزه الله- ليصل إلى ذلك المكان إن تمكن له؛ وخاطبنا الشيخ القائد أبا محمد عبد الله بن خيار -أكرمه الله-

ليصله وتتلاقى هنالك الآراءُ المذاكرةُ المباركة . وعند الشيخ أبي إسحاق والحاج يعيش ما ذاكرناهما فيه مما يُعتمد عليه إن شاء الله. والله يُعرِّف اليمن في ذلك والخِيرة، ويجعله عنوان الإقبال وفاتحة النصر بمنه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أعزكم الله ! خلال النظر في إنفاذِ هذا الكتاب إليكم، سنى الله تعالى ما يصلكم صُحبتَه من فتح (قفصة) وما اتصل بفتحها من مخاطبة عرب (قابس) الذين فروا منها وقْت فتحها، وطلبهم للأمان على ما اقتضته المخاطبة إليكم.

ونحن قد استخرنا الله تعالى على التوجه إلى الغرب والحركة لاستقبال تلكم الجهات، وأخذنا في أهبة ذلك.

فاستعدوا له، وشُدُّوا أنفسكم، واضبطوا مواضعكم، فكان بنصر الله الذي وعد به وإتمام أمره لأهله، ولا بد من دوامه ما دامت السماوات والأرض.

فلتُعرفوا بذلك جميع الموحدين وتُبشروهم به وبمطالعة الفتح لهم إن شاء الله. والسلام.

كتب في الموفي عشرين من ذي القعدة سنة أربع وخمسين وخمسمائة.

الرسالة العاشرة:

من أمير المؤمنين —أيده الله بنصره، وأمده بمعونته -إلى الشيخ الفقيه القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج-أدام الله كرامته بطاعته وتقواه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي عمت برحمته نعمه، والصلاة على محمد نبيه الذي انجابت بنوره حنادس الكفر وظلمه، وعلى آله وصحبه الذين عرفت في هديهم أخلاقه العظيمة وشيمه، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم. القائم بأمر الله ثابتا في بسطه قدمه، ظاهرا في تمشيته في البسيطة سبقه وتقدمه، فإنا كتبناه إليكم- كتب الله لكم عقد الايمان وربطه، ونظم لكم بطاعته سلك العمل وسمطه- من حضرة مراكش- حرسها الله- ونحن نشكره سبحانه على إفاضة الخير ونشره، وصلة تيسيره لأوليائه ويسره.

وقد وصلنا أخوكم الشيخ الجليل أبو محمد، وابنكم أبو الحسن، وصاحبكم الشيخ الكاتب أبو عبد الله بن زرقون- أكرمهم الله بتقواه- فأدوا من حق

هجرتهم البرة ما قلدوه، ونالوا من خير الزيارة والبيعة ما اعتمدوه، ثم انصرفوا مبرورين مسرورين بما ألقوه من بركة هذا الامر الكريم ووجدوه. وقام عذركم-وفقكم الله- على ساقه فقبل، ومثل ولاؤكم نائبا عن الوصول فوصل. ولكم عندنا-وفقكم الله وأكرمكم- من حظوظ التقريب والايثار، وموالاة التنبيه على سبيل الدوام لكم والاستمرار، فوق ما تؤملونه، وخير ما تستقبلونه.

فاشكروا الله تعالى على ما وهبكم، وتقربوا إليه بالاعمال الصالحة يضاعف قربكم، والله يحفظ إيمانكم وأمانتكم منا لكم ورتبكم، بمنه. والسلام.

الرسالة الحادية عشر:

من أمير المؤمنين-أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين بصنهاجة تاسغرت والمشيخة والاعيان والكافة- وفقهم الله وأعانهم على ما يرضاه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله على أنعمه التي أضفاها، ورحمته التي نرجو أن تقربنا زلفاها، والصلاة على محمد نبيه الذي قضى حقوق الامانة ووفاها، ومحا بأمر الله آثار الكفر وعفاها، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، وليه الذي تقبل سبل الهداية واقتفاها، وأقام رسوم الشريعة على رغم من حجدها ونفاها، فإنا كتبناه إليكم- كتب الله لكم أجر من جاهد واجتهد، وتوكل على صادق وعده واعتمد- من حضرة مراكش —حرسها الله- في السابع والعشرين من ربيع الاول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وكلمة الحق بفضل الله لا تفارق سموا وعلوا، وأمر الله يكبت أعداءه عدوا فعدوا، وبركات إمامنا المهدي-رضي الله عنه- تتزيد على مر الزمان رواحا وغدوا.

وقد صدرنا —وفقكم الله- على الحضرة العلية تينملل-كرمها الله- بعد أن قضينا بحمد الله أوطارنا، واقتضى النظر في المصالح صرفنا وإصدارنا، واجتمعنا بالجماعة الواصلة من قبلكم على أحسن حال، ووعينا جميع ما تحملوه من مقال، ومن قبلهم تقفون إن شاء الله على مقتضى نظرنا ومعناه، و ينتهي إليكم بحول الله ما رأيناه. وتصلكم طي كتابنا هذا نسخة كتاب خاطبنا بمثلها كل جهة من جهات الموحدين -وفقهم الله- فيما قرب وبعد، وحملناها من الوصايا ما نرجو أن يعين على أمر الله ويعضد، ورأينا إيفاذها إليكم لتنالوا من بركاتها ما تجدون إثره قريبا، وتحوزون من خيره حظا وافرا ونصيبا . فاشكروا الله تعالى على ما وهبكم من فضله، وخصكم به من عميم طوله، واعلموا مقدار ما نلتموه من الاجر في صبركم وجهادكم، وإخلاصكم لهذا الامر-أعلاه الله- بجميل اعتقادكم، وسترون من بركات ما تحمدون به آراءكم، وتجنون ثمرته لكم ولمن وراءكم- يسركم الله للخير، وجعلكم ممن سار في مرضاته أكرم السير- والسلام الكريم عليكم ورحمة الله.

الرسالة الثانية عشر:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الشيخ الأجل أبي زكراء يحي بن علي- وفقه الله ويسره لما يرضاه- سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي ظهرت قدرته، وختمت بالسعادة لأهليها فطرته، وأقامت أود الدين معونته الغالبة ونصرته، والصلاة على محمد نبيه صلاة تكتنفه بها ذاته الطاهرة وآله وعشرته، وعليهم أجمعين من السلام الطيب ما ينعمهم نعيمه ونضرته، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي تهللت به قسمات الدين وأسرته، وانفرجت بهدايته أزمات الامر وعسرته. وكتابنا إليكم- كتب الله لكم أسعد الاعمار عاقبة وتماما، وأقرب الاقدار اتصالا بمنازل الابرار وإلماما، وأعود الاقطار بجوامع الاختيار ربطا لها ونظاما- من حضرة مراكش —حرسها الله- ونحن نسأل الله عونا على ذكر أياديه التي لا يحصرها حاصر، ونعمه التي كل لسان في وصفها قاصر،

ونستنصره على القيام بحقوقها فهو ولي وناصر، ونقبل بولاء الايمان وإخلاصه على كل من أقبل وأخلص، ونبادر بكرم الاجابة إلى كل من جنح نحونا وحرص، ونصل في ذات الله كل ولي وصل ووالى، وتتلقاه من قبولنا بما يستمر نماؤه ويتوالى. وما غرضنا- والله يوفقكم- إلا خير بجميع المسلمين شامل، ورشد لا يخيب عن أمله آمل، وصفاء للمصافي آخذ بآداب الله عامل.

وقد تواردت علينا كتب الطلبة الذين بالاندلس-وفقهم الله- يعلموننا بما أنتم عليه لهذا الامر-كرمه الله- من الميل والنزوح، وبما بينكم وبينهم من الاتصال الصريح، والتعاون في ذات الله القائم على الولاء الصحيح، وذكروا من تحققهم لمحبتهم وصفائكم، واختبارهم لصدق عهدكم ووفائكم، ما عقده الرأي الموفق وسدده، وأوصله التحقيق موصلة وأشده. ثم وصل الشيخ أبو فلان فشافه من ذلك بأغراض جميلة مستحسنة، وآراء ظاهرة في الصلاح بينة، ووصف جانبكم الاثير، في إرادة الخير، بأوصاف مفصحة بكرمه معلنة. فتلقينا ذلك كله تلقي الرضا والاحسان، واستقربنا غاية عهدكم بما استقربناه

من ذلك العنوان، وسررنا أن تكون لهذه الطائفة العزيزة من أخلص الاخوة في ذات الله والاخوان.

وهذا الامر –وفقكم الله– هو أمر المهدي–رضي الله عنه– قد بشر به النبي –صلى الله عليه وسلم– في غير ما حديث، وظهرت علاماته وآياته في قديم مزامره وحديث، ودل على اسمه وزمانه، وفعله ومكانه، بأدلة رفعت الاشكال والتعسف، فأتى –رضي الله عنه– كما نعت النبي–عليه السلام– ووصف، وقال–صلى الله عليه وسلم– فيه وفي طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهور الاشاعة والاذاعة، وقضى بوجوب الايتمار والطاعة، وأخبر في جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة. والامر في ذلك كله من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى بيان، ولا يفتقر إلى إقامة برهان، فهو معلوم كما أنبأ به الخبر الصحيح في العرب والعجم والبدو والحضر في كل ديوان وإوان، وقد تبين الصبح لذي عينين، وجدع الحق أنف الكذب والمين، وجلت الهداية ضد الضلال والرين.

وأنتم -وفقكم الله- أولى من شد على هذا الامر-كرمه الله- يد المتمسك، وأحل نفسه بحبوحة هذا المنسك، وأقام دينه على هذه القاعدة التي هي نجاة المؤمن ومهواه المشرك. والذي لكم عندنا —وفقكم الله- من إرادة الخير واعتقاده، وإسعاف أملكم فيه وإسعاده، ما تميل إليه الافئدة، وتجنح نحوه النفوس المسترشدة. فاعلموا ذلك علم اليقين، واعتقدوا عليه عقد المغتبط الضنين. وإنما ينبغي أن يقع موقع السرور المتمكن، ويتخلل جذله جوانحكم تخلل المبالغ الممعن، ما خص الله به مسوفة- أكرمهم الله- الذين هم من قبيلتكم وفصيلتكم، فإن حبهم ثبت لهذا الامر على تحققه وتثبته، وقام ودهم له في مواطن الصفاء وقبلته، وهاجروا اليه وهجروا سواه، وكانوا إلفا على من أراده بسوء ونواه، وظهر ولاؤهم ظهورا أغنى عن وصفه اشتهاره، وصفا أديمه فاتضح نهاره، واشتمل عليهم منه بفضل الله أكرم مشتمل، وعاد عليهم بكل متمنى ومتأمل.

وكذلك الشيخ أبو زكرياء يحي بن إسحاق بن إبراهيم —أعزه الله- وبنوه وقرابته —رعاهم الله- قد تمكنوا من محبته في أعلى الرتب، واعتقدوه لما

وجدوه كما قصدوه غاية المطلب، فاتسعت لهم ولسواهم من أعيان القبائل المذكورين كافة أكنافه، واستقر بهم إلى منازل البر والترفيع استدناؤه واستعطافه، فهو آلفهم بفضل الله عليهم وهم آلافه. وإن كتب جماعتهم لترد من صحرائهم، وتقرر ما لديهم، من حسن أغراضهم وسداد آرائهم.

ومثلكم –وفقكم الله– اقتطع لنفسه من هذه الحظوظ المباركة بأوفاها، وأخذها عن أحفل وجوهها وأحفاها، فدنا ببركتها وقرب زلفاها. جعلنا الله وإياكم ممن نورت الحكمة قلبه بنورها. وملأت المحبة جوانحه ببشراها وسرورها، وأتته آمال الصلاح بمنقادها وميسورها، بمن الله وعونه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتب في التاسع من ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

الرسالة الثالثة عشر:

من ذلك رسالة بعث بها عبد المؤمن بن علي الكومي سنة ***546*** إلى الطلبة الذين بسبتة:

من أمير المؤمنين —أيده الله بنصره, وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين بسبتة وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة- وفقهم الله وسددهم- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فالحمد لله مولى الرغائب، وحسنى الآمال والمطالب، وقابل ثوبة الثائب، نحمده بما يتعين من حمده الواجب، ونصلي محمد نبيه العاقب، وعلى آله وصحبه أولي المفاخر السنية والمناقب. ونصل الرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، المحرز شرف المباديء والعواقب، المجلي بنوره الثاقب، حجب الظلام الواقب. وكتبناه لكم ـ كتب الله لكم شكرا موالي معادا ، من حضره مراكش-حرسها الله - وقد وصلنا بحمد الله على أتم أحوال الظفر واليمن ، وعدنا إليها تحت ظل السلامة والأمن ، بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها ،

وإطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها... ونال الغزاة في هذه الحركة الميمونة من الأجور والمغنم الموفور، والفضل الذي ينشر عليهم أجنحته يوم النشور ما لا يتمكن لأحد من البشر وصفه على حال ولا يتأتى لمخلوق لغته على استيفاء وإكمال. فطوبى ثم طوبى لمن حضر في سبيل الله فأحضر، وأخلص نيته في غزوه الميمون بمبلغ ما استطاع وقدر، وتساعدت جوارحه في تلخيص ما اكتسب من هذه الفضائل واذخر.

وإن النعمة -وفقكم الله- بهذه الفتوح العميمة العامة شاملة على من أخذ بهذا الأمر العزيز ودان، وتزيا بحلته البهية فازدان، فهي الفتوح التي ظهر بها من آيات المهدي -رضي الله عنه- العجب العجاب، وفاض فيها من بركاته الفيض المنساب، ودرت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب. وكان أمرها مخصوصا بالمرتدين الخاسرين، فمحقهم وطيسها الشديد الغلاب، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والمتاب.

فاشكروا الله، عباد الله، شكرا دائما مستمرا مع الاحيان، وأحسنوا ضمائركم، وطهروا سرائركم، في مقابلة هذا الاحسان، وتوبوا إلى الله جميعا

توبة نصوحا غاسلة للقلوب من الاردان، فالتوبة أصل للاعمال الراجحة، والمتاجر الرابحة، ونعوذ بالله من الخسران. وقد آن لكم، أيها المؤمنون، أن تجددوا توبتكم تجديدا وكيدا، وتغتنموا من هذه النصائح التي تتداولكم حظا مفيدا، وتشهدوا الله على التمسك بعصم الايمان، وكفى به شهيدا. فبادروا – رحمكم الله– إلى طاعة الله تعالى في العلانية والنجوى، وشدوا أيديكم على هذا الحبل الامتن الاقوى، واعلموا أنكم راحلون، فتزودوا، فإن خير الزاد التقوى، وحافضوا –أصلحكم الله– على إخلاص النيات، والتزام الصلوات، وسائر أعمال الطاعات، وتلاوة القرآن والتوحيد فهي أكرم التلاوات.

واصفحوا، واصلحوا، وتعاملوا بالخير تفلحوا، واقرعوا أبواب الرحمة بإيمان الايمان تستفتحوا، وواظبوا على تغيير المنكر وأتمروا بينكم بمعروف تنجحوا. واشتغلوا بدينكم اشتغالا يخلصكم، والتزموه التزاما يخصكم على الدوام ويحرصكم، وتزيدوا من الاعمال الصالحة في هذه الاعمار التي لاتزال مع اللحظات تنقصكم. ورحم الله إمرءا سمع النصيحة فابتدرها، وجاهد نفسه

على طاعة الله فقرها، وأخذ عليها مآخذ الشهوات فنهارها بالحق وأمرها.

أعاننا الله وإياكم على شكر نعماه، وطلب رحماه، بعزته. والسلام.

الرسالة الرابعة عشر :

ومن فصول رسالته التي كتب بها عن أبي حفص ، وهي التي أورثته الرتبة العلية السنية، والوزارة الموحدية المؤمنية، قوله :

كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصر الله تعالى المعهود المعلوم ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ (آل عمران) : فتح بهر الأنوار إشراقاً ، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأماني النائمة جفوناً وإحداقا ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الألسن لكنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً، جمع أشتات الطلب والأرب، وتقلب في النعم أكرم منقلب، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب:

فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وقد تقدمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة، كان أولئك الضالون المرتدون من أهل ماست قد بطروا عدواناً وظلماً، وارتكبوا إفكا

وجرما، واقتطعوا الكفر معنى واسماً، وأملى لهم الله تعالى ليزدادوا إثماً، وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته، واستهوى القلوب بمهولاته، ونصب له الشيطان من حبالاته، فأتته المخاطبات من بعد وكثب، ونسلت إليه الرسل من كل حدب، واعتقدته الخواطر أعجب عجب، وكان الذي قادهم إلى ذلك، وأوردهم تلك المهالك، وصول من كان بتلك السواحل ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف عن الأعوام، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام، آناء الليال و أطراف الأيام، لبسوا الناموس أثواباً، وتدرعوا الرياء جلباباً، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق باباً.

كان الناس هناك موقف أخذت الحرب فيه حقوقها، ونهجت به طريقها، وعرفت به رجالها وفريقها، وكنا نحن بخاصتنا في الساقة فحملنا على من يلينا من الأعداء، وحملت كل قبيلة على من يليها على الولاء، فكانت هناك كرات شهيرة، وحملات كثيرة، وظهر لأعداء الله تجلد لم ير قط لأمثالهم، ولا تخيل من أفعالهم، وذلك انهم كانوا يعاينون غويهم لا تنقله الحملات ولا تحركه، ولا تزيله المنية عنه ولا تتركه، فكانوا ينظرون اليه ويظهرون الجلد

والاجتهاد لديه، فلما عاينه الموحدون واقفا بمكانه، مقبلا على بهتانه، قصدوا بعون الله لاطفاء ناره، وكف عنانه. فصرع بحمد الله تعالى لحينه، وبادرت اليه بوادر منونه ، وأتته وافدات الخطيئات عن يساره ويمينه، وعاد لوقته طريحا، تقلب منه المنايا قلبا قريحا. وقد كان يدعي أنه بشر بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه، والنوائب لا تنوبه، ويقول في سواه قولاً كثيراً، ويختلق على الله تعالى إفكاً وزوراً، فلما رأوا هيئة اضطجاعه، وما خطته الأسنة في أعضائه وأضلاعه، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه، هزم من كان لهم من الأحزاب، وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب، وأعطوا عن بكرة أبيهم صفحات الرقاب، ولم تقطر كلومهم إلا على الأعقاب، فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم، وآذنت الآجال بانقراض آمادهم، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم، فلم يعاين منهم إلا من خر صريعاً، وسقى الأرض نجيعاً، ولقي من أمر الهنديات فظيعاً، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي، ودام الموحدون في الاصرار على قتلهم والتمادي فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما ينجيه، اختطفته

الأسنة هناك اختطافاً، وأذاقته موتاً ذعافاً، ومن لج في الترامي على لججه، ورام البقاء في ثبجه، قضى عليه شرقه، وألوى بذقنه غرقه، وكان دخولهم في أول مده الى حين ابتداء الوادي في جزره ونقصانه وكفه من حملاته وطغيانه ودخل الموحدون إلى البقية الكائنة فيه يتناولون قتالهم طعناً وضرباً، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولاً عظيماً وكرباً، حتى انبسطت مراقات الدماء، على صفحات الماء، وحكت حمرتها على رزقته حمرة الشفق على زرقة السماء، وجرت العبرة للمعتبر، في جري ذلك الدم جري الأبحر   فمن لم تدركه منيته بسنان، أدركه الغرق بشر مكان" .

الرسالة الخامسة عشر:

وفي رسالة أخرى بعث بها عبد المؤمن بن علي إلى الشيخ أبي فلان وجماعة المشيخة بقرطبة، يقول كاتبها أبو جعفر بن عطية:

من أمير المؤمنين –أيده الله بنصره، وأمده بمعونته –إلى الشيخ أبي فلان وجماعة المشيخة بقرطبة– حرسها الله وأدام كرامتهم بتقواه. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد ، فإنا نحمد الله إليكم الله الذي يصل الفتوح لأوليائه بفتوح ، ويلهم الراشدين من عباده إلى كل رأي نجيح ، ويقرب للمتقربين بالتوبة النصوح ، كل آمّ شاسع ومأمول نزوح، ويشفي بدواء الإقالة، من مرض البطالة، كل كبِد ذات كبَد، وقريحة ذات قروح، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من علم وحدانيته على جلاء من آياته ووضوح، ونصلي على محمد نبيه المصطفى صلاة يستقبل بها من رحمته شطر باب مفتوح، ونستنزل ببركاتها على جنابه الانضر كل سحاب سفوح، وعلى آله الاكرمين وأصحابه الظافرين من هداه

بحظ ربيح، الجائلين في ميادين حقائقه، وأتباع طرائقه، مدى أجل فسيح، ونصل الرضوان المستدام، على من وجب الله الاقتداء به والاتمام. الامام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله قيام من كان لله ولرسوله ولكافة المؤمنين خير نصيح، والداعي إلى ما أمر الله بالدعاء إليه على ما جبله عليه من صحة بالهداية وتصحيح.

وهذا كتابنا اليكم –كتب الله لكم بطاعته من مقامات المغفرة خير مقامة، و أدام لكم نصرة ما استقبلتموه، ونصرة ما أملتموه، أكرم إدامة، وأقام لكم في العالمين من شواهد الاخلاص أبين إمارة وأوضح علامة – من حضرة مراكش –حرسها الله– وبفضله جلت قدرته ما استفاض ببركة هذا الأمر المبارك من نور قدسي، وخير معنوي وحيّ، وما قربه بيُمنه من أمل قصي، ولينه من شديد قسي، وأسمعه أولياءه من نبأ إنسي، حتى انتشرت في الآفاق مطارح أشعته، وابتدرت عشائر الإيمان ما ابتدرته من تعزُّز بعزته الأبدية ومنعته، واستنار شرف سنته الطاهرة وشرعته، وأقبل كل موفق إلى ما وفق له من فيئته إلى الله تعالى ورجعته، واستمسك الراشدون منه بعروة لا تنفصم، واعتصموا بما

لا ينجي من دعوته الربانية ويعصم، وخاب عن هذه الرحمة الواسعة الناكص المتأخر والألد الخصم.

وقد وافانا –أدام الله كرامتكم- كتابكم الاثير، فكان عن عقيدتكم لسانا مبينا، وأخذ في وصف انقطاعكم إلى هذا الامر العظيم، واعتلاقكم بجانبه الرحيم، ماخذا سهلا بينا، ونبأنا بما تطوقتموه من رفقته حين فرض التوفيق عليكم منها واجبا متعينا . وانتهت إلينا بيعتكم التي ضمنتموها بما اشتملت عليه من عهودها ومواثيقها، والتزامكم لما أوجبه الله تعالى من شرائطها والقيام بحقوقها، والله يمن عليكم بتثبتها في مواطن الخلد وتحقيقها، ويوجدكم بركة ما أشممتموه من بروقها . وليس لكم –وفقكم الله- عن هذه الطائفة العزيزة إلا ما يطابق أملكم من إسعاف وإجابة، واحتلال قرار من لديها ومتابة، وولاية تنوب في تنويه جانبكم وإطلاء مطالبكم أكرم إنابة، ووصلة تربط لكم بفضل الله موات أخوة إيمانية وقرابة، فاشكروا الله تعالى على عظيم هذه المنة شكرا تصيبون به شاكلة التناهي خير إصابة، وتستدعون

ببركة الله ولاء هذه العصابة، التي جعلها الله من خير أمة أخرجت للناس خير عصابة.

واستقبلوا –أكرمكم الله- بالاعمال البرة عمرا جديدا، وأحيوا أنفسكم بنور الحكمة إحياء سعيدا، وعضوا على طاعة الله ورسوله ومهديه بالنواجد عضا مسكبا لاباحتها مفيدا، واشهدوا الله تعالى على التزامها، والدخول تحت إحكامها، وكفى بالله شهيدا، واسألوا الله أن يطهركم بالثلج والبرد والماء البارد سؤالا مستكثرا من رحمته مستزيدا. واستبشروا فقد نفحتكم البشرى بعاطر نفحها، وتلقتكم الكرامة بريحانها وروحها، وأجلتكم الامنة أجوان كثبانها ودوحها، واستمسكوا بأمر المهدي –رضي الله عنه- فهو سبب النجاة والخلاص، والمأمن من نوائب الانتكاس والانتقاص، والموعود بالضهور والاستيلاء والانتقام من عداته والاقتصاص، هو أمر الله الذي أتمه صدقا وعدلا، هو ستره الذي أصفاه على أوليائه سترا وسدلا، هو رحمته التي شملت المؤمنين فكانت لهم أهلا، وكانوا لها أهلا، وبه إن شاء الله تأمنون من كل ما خامركم نبل روعه، وتصلون إلى ما حال دونه صرم الزمن وقطعه،

وتجدون عما قريب في أنفسكم وأهليكم وأموالكم ما يظهر لكم بركته ونفعه، والنظر بعون الله يكنف تلك الاقطار وينتظمها حتى تبل أرحامها، ويؤمن حرمها، ويكون على سواء السبيل أممها، وينتحى الجادة طوائفها وأممها.

وقد وفد لنا —أكرمكم الله- أصحابكم الشيوخ أبو محمد وأبو الحسن وأبو عبد الله- وفقهم الله- فألفوا بهذه الحضرة- حرسها الله- عصا تسيارهم، ونالوا من الزيارة المبرورة والبيعة الكريمة منتهى طلبهم واختيارهم، وبلغوا ما تحملوه من أخبارهم. ونرجو ان الله تعالى يعيد تلك الاحوال إلى أفضل عوائده من الصنع الكريم، ويسقيها ما ينعمها به من ماء النعيم، ويوجدها من لطائف الرحمة ما كان قبل هذا الامر المبارك في حكم المعدوم، بمنه. والسلام.

كتب في الثاني من صفر عام أربعة وأربعين وخمسمائة.

الرسالة السادسة عشر:

ورسالته إلى الطلبة والأشياخ والعمال من الموحدين ببلاد العدوة والأندلس وهي بمثابة دستور للدولة الموحدية ، حيث ترسم سياسة عبد المومن بصفة عامة وتشتمل على كثير من النقد الموجه للولاة والقائمين بشؤون الحكم عامة والعلماء خاصة، وجاء فيها بعد البسملة والصلاة:

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى ونصره وأمده بمعونته ، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والعيان والكافة ، وفقهم الله تعالى واستعملهم بما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد ، فالحمد لله وهو اللطيف الكريم، الرؤوف الرحيم، الذي بعدله قامت السماوات والأرض وبه تقوم، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم، ولأمته المخلصة في عليين كتابنا المرقوم، والرضا عن الإمام

المعصوم المهدي المعلوم ، الذي بعثه رحمة للمومنين ينيلهم به الروح والنعيم، ويريهم رحيقها المختوم.

وكتابنا هذا - كتب الله تعالى لكم رأفة ورحمة، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمه - من الحضرة العلية بتملل، حرسها الله تعالى في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وقد وصلنا -والحمد لله- وجناح الرحمة مخفوض، وطرف المكاره مغضوض، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض، وشأن الظلم -بإذن الله تعالى- مكفوف مقبوض، والحق أبلج لا كناية ولا تعريض.

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدي رضي الله تعالى لتجديد عهد به تقادم وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر في بناء مسجده المكرم تمتعا ببركاته، ورجاء في تضاعف الأجر بكل لبنة من لبناته، وحرصا على أن يتوافر به حظ التوفيق وقسمه، ويعلو في الملإ الأعلى ذكره ورسمه، ورغبته في بيت من أفضل البيوت التي أمر الله عز وجل أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولتنعم الجوارح بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة والمواسم

المعظمة، وتتزود بالتطوف على معاهدة ما عهدته العوارف المتممة، كل ذلك غرضها في ذات الله تعالى غرضه، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك الخير ويستنهضه.

وقد ثم بحمد الله تعالى هذا الوطر واقتضى الإياب إلى النظر في المصالح والرأي الجميل النظر ، وتفجرت -بحمد الله تعالى- منابع الخير وفاضت، وعادت روابط الأمر إلى اشرف حالاته وآضت، وانبعثت موارد البركات بعدما غارت في غير هذا الزمن المذكور وغاضت، ونسأل الله تعالى عونا على شكر هذه النعم التي عمت ملابسها، ووعت الأفئدة نفائسها، وخاب عن رحماها خاسر الكلمة وبائسها.

وإن الله تعالى قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتساكه، وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه، فالسعيد من لقي ربه مبرءا من اتباع الهوى سليما، والشتقي من أتى مليما باكتساب الكبائر ملوما، ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه، وكان الله عليما حكيما". والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين، ويحب الرفق ويحل به كنفه الأصين، وفي الحض على ذلك

يقول وهو أصدق القائلين: "اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين" . وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء ، وبرأفته كشف عنهم الغماء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنما يرحم الله من عباده الرحماء.

وقد اتصل بنا ، وفقكم الله تعالى ، أن من لم يتقى الله تعالى ولا يخشاه ولا يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاه ولا يومن بيوم الحساب فيما أدعاه من المنكر وأفشاه، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والإيثار وينتشرون بالقتل بأعراض الناس أقبح الانتشار ، يستحلون حرمات المسلمين من غير حلها، ويسارعون الى نقض عقد الشرع وحلها، ويصفون الشدة والغلظة بطرا ورياء في غير محلها، ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهق الجبال عن حملها، ويستنبطون من فواحش الآثام ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ويتسببون الى قتل المسلمين فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبيسات ينشئونها، ومزورات يضيفونها إليهم وينسبونها، وينظرون الى اهتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل يعدونها ظلما ويحسبونها، ويسعون في استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة، ويعيثون فيهم بكل غاصبة للقلوب منتزعة، والنبي صلى الله

تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول: "من قتل عصفورا بغير حق عبثا جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني عبثا من غير منفعة". ولا يلتفتون الى عاقبة ولا ينظرون، ولا يمرون باذانهم ما يفعل تعالى بأمثالهم ولا يحذرون. "يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا انفسهم وما يشعرون". هيهات هيهات. إنهم ساء ما كانوا يعملون، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في أقرب أمد ما يهدهم هدة من اشتداد الهلكة سدا، ويستأصلهم، بصواعق الانتقام، فقد جاءوا شيئا إدا.

أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم، ويوقعهم في مهاوي بلواهم، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما إستهواهم الشيطان به واستغواهم أما علموا أن أمر المهدي رضي الله تعالى عنه تساوى في الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ألم يقل رسول الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم: المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى لذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم لقد أمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداما، وأعمت الشهوات بصائرهم اذهابا لنور الحق من نفوسهم وإعد ما، وتالله لو يتعين لنا فاعل ذلك وتشخص، لما خرج من حبالة مكره ولا

تلخص، ولسارع اليه من أسرع عقابنا ما يمحو رسمه محو الفناء، ويكتب يديه بما قدمنا من الخنى.

ولقد ذكر لنا فيما ذكر من تلك المظالم، المستغرقة لأنواع المآثم، الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم، أن أولئك الخائضين في غمرات أبحرها، المثيرين لأسباب منكرها، الصارمين لعلق الشريعة القاطعين لأبهرها، يمدون أيديهم الى ضرب الناس إغارا للصدور وإيحاشا، وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله، أو يتجه اليه حق بنوع من الاتجاه، ما أبعد العدل أصلحكم الله تعالى -عن هذه الأمثال والاشباه، وقد علمتم ان عادتنا فيمن يستوجب الضرب أو يستحقه و ممن يظلم الأمر الشرعي أو يعقه، حدود معلومة، دون افحاش ولا انتهاك، ومواقف مرسومة، تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثيم أو أفاك.

ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرما وإفكا، وأدناها إلى من تولاها وهلكا، وأكثرها في نفس الديانة عيثا وفتكا، "فانا لله وإنا إليه راجعون" هل قام هذا الأمر

العالي إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه، وتمهيد سبيل الحق وطرقه، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه، اللهم انا نشهدك أن سبيلنا سبيلك، وإنا نستعيدك مما استعاذك منه محمد رسولك، روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعوذ بالله من المغرم والمآثم" تنبيها على ما في إغرام الناس من الظلم المظلم، ولئن نقل الينا -والله الشاهد- إن نوعا من هذه الأنواع المحرمة، أو صنفا من تلك الاصناف المظلمة، يتولا أحد هنالك من البشر، أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر، لنعاقبنه بمحو أثره عقابا يبقى عظة لمن اتعظ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ.

وإن من ذلك الرأي الذميم، والسعي المنقوم، ما ذكر لنا في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع الى أوطانهم وعمارتها، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها يتسبب اليوم قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذي يضعون الغش طي ما يوهمون به من النصيحة، ويستنبطون المكر في تصرفاتهم القبيحة، فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت، وان للمخزن جميع ما به أتيت ويقرنون بهذا من الوعيد والأغلاط الشديد ما يرضى له المذكور

بالخروج عن جملة ماله، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم

مناله، وإنها لداهية عاقرة، قاصمة للظهر فاقرة، ويا عجبا لكم -معشر

الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين- فإنكم بذلك مطلوبون، وماحجتكم وما أنتم

على حق كيف تتكيف هذه الكبائر وأنتم للأمور هناك رصد كيف تجري هذه

الظلمات وقد قام للحق أود أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك،

والحرمات تنتهك، ولا يمتعض لذلك منكم أحد كلا ليعاقبن كل من جنى،

وليظهرن ما قصد القاصد وما عنى، وإن وراء قولنا لتتبعا يبحث عن ذلك

ويمحص، ونظرا يفرق بين المشكل منه ويخلص ولا شك -والله أعلم- في أن

أسباب تلك المنكرات، ودواعي تغيير تلك الاحوال المتغيرات، قوم يتوسطون

بينكم وبين الناس، ويقولون مالا يفعلون ذهابا الى التدليس عليكم والإلباس،

ويجعلون النفير بالظلم والعدوان بدلا من العدل والقول الجميل والايناس،

وذلك لغيب المباشرة ومباينتها، وبعدكم عن مشاهدة الامور ومعاينتها،

والتحجب عن مطالعة الامور ومعاينتها، والتحجب عن مطالعة المور داعية

كبرى لفسادها واختلالها، وسبب قوي في انتقاضها وانحلالها، وفرصة

لوسائط السوء بانهمالها في البواطن واسترسالها، فلا تك لوا النظر فيها الى أحد سواكم، ولا تبعدوا بغلط الحجاب عما قصدكم من الخير ونوالكم، وباشروا الاحكام هنالك مباشرة المتعهد المتفقد، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال، وتتبتوا -وفقكم الله- في الاحكام التي لابد لكم من النظر فيها تثبت البحث عن حقائق الامور والاستقصاء، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللذد في الخصام وبالغوا في الايصاء، ولا تظنوا أن الاجتهاد في الأمور يؤدي الى الهجوم عليها والاقتحام، ويخرج النظر عن التثبيت في القضايا والاحكام، فاذهبوا فيها مذهبا وسطا، واقصدوا الاعتدال مقصدا مقصدا مقسطا، ولا تجتهدوا في شيء لا تعلمون فيه حكما، وشاورونا فيما يخفى عنكم وجهه لنرسم لكم فيه رسما و فليس كل مجتهد مصيبا برأيه، ولا كل هاجم على رأي منجحا في سعيه، وبين طرفي الاحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة ومناطها، وخير الامور -كما قال عليه الصلاة والسلام- أوسطها.

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسببين لتلك القبائح، الساعين في صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم لنشرد بهم من خلفهم، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم، وقد استخرنا الله في سد تلك الدريعة، وصد تلك الافعال الشنيعة، فراينا أن ترفعوا إلينا احكام المذنبين للكبائر، وتعلمونا بنبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر، دون أن تقيموا الحد عليه، أو تبادروا بالعقاب إليه، ولا سبيل لكم الى قتل أحد من كل من هو في بلاد الموحدين وانظارهم، ومن هو معهم و داخل في مضمارهم، وكل من ترون أنه يستوجب القتل، ممن يريد المكر في أمر الله والختل، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه، ليفند فيه من قبلنا ما يوجبه الحق ويقتضيه، ونمضي في عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه، فاياكم من مخالفة أمرنا هذا في قتل أحد ممن ذكرناه كائنا من كان، كبر ذنبه عندكم أو هان، ولتبادروا إلى اعلامنا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه لتقابله بما نراه، ونجري الحق فيه مجراه.

وإنه أعلمنا من يرضى من تلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه، ولا يبالي أحسن الفعل فعله أم قبيحه، يبتاع المرأة، يبيعها دون استبراء، ويبعث في ذلك بكل إقدام على الله تعالى واجتراء، ولا يتحفظ من مواقعة الزنا المحضو ومخالفة الواجب مع الفرض، وإن في ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع الشرع، وإفساد الاصل من السنة والفرع، ما لايحل سماعه، ولا يستقر بنفس مؤمنة استطاعه، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئًا منهن أو يبيع حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ لئلا يذهب الحق في ذلك ويضيع، ولتقدموا للنظر في أسواقهن من ترضون دينه وإمامته، وتتحققون ثقته وصيانته، فمن أبيح له البيع والابتياع احضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشك والنزاع، وتجري السنة مجراها ويمتثل الأمر المطاع وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء في جميع من تغنمونه منهن في تلك الأرجاء، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته، وتعلمونا من ذلك بجليته، لنرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم، ويجري إليه اقتصادكم.

والله الله في البحث على الخمور وتقديم النظر في أمرها فهو من أهم الامور، فانها مفتاح الشرور، ورأس الكبائر الكرام والفجور، وهي رابطة أهل الجرم، وجامعة اشتات الظلم، قال النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم: "الخمر جماع الإثم" فخذوا في طلبها في المواطن المتهمة بشأنها، واجتهدوا في إراقتها وكسر دنانها، واعمدوا الى السبب الذي يؤدي الى التمكن منها فارعوه والحظوه، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه، وقدموا أمناء متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب، يكون بالمحافظة على ذلك محل الكالء الرقيب، ولا يكن منهم الا من يفرق بين الحلال والحرام ويميز، ويعرف ما يجوز شربه وما لا يجوز، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرب واعتصاره، وخذوهم بتوقف جدهم على ذلك واقتصاره، فما حل منه أباحوه، وما كان غير ذلك قطعوه أصلا وفرعا وأراقوه، "الحلال بين والحرام بين" ولقضايا الشرع نظام. قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه: "ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام".

وإن ممن يسعى في نوع من أنواع الفساد، ويستصحب الإضرار بالمسلمين في الإصدار والإيراد، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون، ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون، فانه ذكر لنا فعل كل فرقة منهم في سيرها، وسوء رأيهم بذلك في المخازن وغيرها، وان من جملة ما حكي عنهم انهم يتألفون في الطرق جموعا، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعا، يكلفونهم مؤناتهم تكليف المجرم، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم، حتى انهم لا يرتضون في ضيافاتهم الا بأسمن الجزر، وناهيكم بهذا الاجتراء العظيم الضرر، فسارعوا- وفقكم الله تعالى- الى حسم هذه العلة من أصلها، وبادروا الى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها، وتخيروا لرسائلكم أرسالا، وانتقوا من اهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا، وادفعوا اليهم زادا يقوم بهم في المجيء والانصراف، ويقطع شأنهم عن التكليف والالحاف، وارسموا لهم اياما معروفة العدد، معلومة الامد، لينتهو بها الى مواقف رسائلهم، ويوزعوها على مسافات مراحلهم، وحذروهم من تكليف احد من الناس ولو مثقال ذرة،

وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور، ونستعيذ به سبحانه من الحور.

وكذلك ذكر لنا -وفقكم الله تعالى- من التحكم في الأموال، وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال، ان اولئك الذين ذكرت خدعهم، ووصفت غرضهم الذميم ومنزعهم، يفعلون في أموال الناس ما تقدم ذكره وشرح مكره، وتمتد أيديهم الى المخازن هنالك فيعيثون فيها ويتحكمون، ويجرؤون في التعدي عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون، فاتقوا الله تعالى فيها، فإنها أمواله المخزونة في أرضه، وبادروا الى كف كل معتد وقبضه، ولا سبيل لكم أن تنفدوا منها قليلا ولا كثيرا إلا بعد استئداننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هنالك، وهذا أمر منا لكم ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة، أمرا دائما لازما، سنته بالاستمرار مستظلة، وصحته بفضل الله لا تدخلها تعلة.

وقد خاطبنا بمثل ما خاطبناكم به جميع الطلبة والموحدين وكافة البلاد التي هي بالدعوة المهدية معمورة، وبكلمة الايمان مشرقة منيرة، فأمرنا

بجميع فصول كتابنا هذا اليكم ولسواكم شامل، وفي كافة اقطار الموحدين نافذ عامل، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف فقد تبين عناده، وساء في العاجل والآجل مآله ومعاده، ومن لم يمتثله بواجب الامتثال، ويكف يده عما رسمناه في كافة الاحوال، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه، واستقبل من ارتكاب النهي ما يصده الانتقام به عن سوء منحاه، فاستصحبوا حدنا هذا استصحابا مؤيدا . واتخذوه في كافة احوالكم مستندا ومعتمدا ، وعلى كل من الى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة في سلك التوحيد، الآخذة بالمذهب الرشيد، عون الامير –أيده الله تعالى– على بسط العدل وإفاضتهم على الكل، ورفع لعبء ثقل وكل : أن يسلكوا في جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة، ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة على ذلك والاستدامة، ويتجافوا عن مواقع الظلم فالظلم ظلمات يوم القيامة، وينقادوا للواجبات بدارا إليها واسراعا ، ويكونوا في التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفا واجتماعا .

ولما كان هذا عندنا –وفقكم الله تعالى– أهم أمر وأوجبه، وأحق ما أدناه الحق وقربه، وكان اهتمامنا به قد جعله على كل حالة مقدما ، وأنفذه بأمر الله

تعالى إنفاذا ملتزما، رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا، وهاهي

قد رفعت الاشكال رفعا بينا، وأورتكم فرط اهتبالنا حقا مبينا، فبادروا إلى

تلقيها بالامتثال والمسارعة، وصلوا ابتداء شأنها بالمواصلة له والمتابعة،

وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من تلكم البلاد من الطلبة

والعمال، وكافة المقدمين للأعمال، ولا تقدموا أمرا من الأمور على إنفاذ جميع

ما تضمنه، والاعتمال بكل ماشرحه وبينه، ولا تشتغلوا بشغل قبل الاشتغال

بمعانيه، وبما امركم به على قواعده ومبانيه، ومخاطبتنا بما يكون منكم في

تلقيه، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه، واقراوه على الكافة أعالي المنابر،

واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والحواضر، واسمعوا به إفصاحا

وإعلانا، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحدانا، وأحسنوا ايصال أغراضه

إليهم فإن الله تعالى يجزي الإحسان إحسانا، فإذا تفرغتم من قراءته على

الجماهير وبلغتم حجته بواجب التبليغ والتقرير، فاكتبوا منه نسخا الى كل

قبيلة من قبائل ذلك النظر، وكل كورة من تلك الكور، واكدوا عليهم فيما أكدنا

عليكم فيه، من تقديم العمل فيه على كل الوجوه وامتثال مضمنه على ما يحبه

الله تعالى ويرتضيه، وحذروهم من التعرض لمخالفته فلا عذر لمن لا يقصده على الفور ويأتيه، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم.

وقد علم الله تعالى ان غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان، وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان، ولدينا من التراؤف بهم والرفق بجانبهم شأن لا يقاربه من فضل الله تعالى شأن، وقد علمتم ذلك منا وخبرتموه، وجربتموه على مر الزمان وصبرتموه، فلتتقوا كل من استرعاكم الله امره بكل طلاقة ويسر، ولتنشروا عليهم جناح الرحمة أكمل نشر، ولتعلموا -رعاكم الله- ان من شملته كلمة التوحيد، في العهد القريب او البعيد، في مضمار واحد من العدل محمولون، وأنكم عن كل من هنالك مسئولون ولفظ الموحدين بيننا وبينهم جميعا، والحق يسلك بينهم من التناصف مسلكا مشروعا، وقد ألفت الكلمة بينهم، فبعضهم لبعض في الخيرة أسوة، وقد قال الله تعالى "إنماالمؤمنون إخوة" . فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل قصدا الى مرضاة الله تعالى وإتيانا، وكونوا عباد الله إخوانا، وأحسنوا بهم -رعاكم الله- ظنا، وعودوهم

الخير لفظا ومعنى، وتخلقوا معهم بمحاسن الأخلاق وقولوا للناس حسنى، واستألفوا الناس بالتي هي أحسن، وابذلوا لهم من المساعدة في ذات الله تعالى غاية ما يتمكن، وانهجوا لهم من المبرات منهجا يبدو به مضمركم الجميل ويتبين، وسروا بصالح عملكم وبشروا، ويسروا –كما قال عليه الصلاة والسلام– ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا.

واعلموا ان السعي في هذا الغرض الواجب، والاعتمال في رفع ذلك المانع الحاجب، لا يتأتى لكم جملة واحدة، حتى تكون نفوسكم متآلفة عليه متساعدة، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاونا يجمع في الصلاح اراءكم، ويضمن النجح التام لكم ولمن وراءكم، فعليكم بالمظافرة والمناصرة والمؤازرة، فهي سواعد السعد، وقواعد الود، وشيم الكرام الحافظين للعهد، وبها يعمر محل الرضى ونديه، وبه أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه.

وقد نصحنا لكم فاقبلوها نصيحة قصدت في ذات الله تعالى قصدها، وذكراكم بهذه التذكرة فاستقبلوا رشدها، ونبهناكم تنبيها بالغا وللحال مابعدها، جعلنا الله تعالى وإياكم ممن امتثل أمره المطاع بخالص نيته، وأفرغ

الرحمة على قالب سجيته، وحفظ ما استرعاه الله تعالى، فكل راع مسؤول عن رعيته.

وكان مما بعثنا —وفقكم الله تعالى- على تنبيهكم وإذكاركم، وإيقاظكم للنظر في تلك المصالح وإشعاركم، ما ألفيناه مراكش —حرسها الله- من بعض تلك الانواع مما أحدثه فيه بعض أهل الابتداع، كنوع القبالة، ومايجري مجراها الإزالة والإحالة، فإنا كنا لا نبحث عن ذلك، لتخيلنا أنه لا يجرؤ أحد أن يسلك في هذا الأمر الذي أظهره الله تعالى تلك المسالك، فلما كان الحث عما يجب، وزال عن وجه المشاهدة ما كان يحتجب، اطلعنا على ذلك فأنكرنا ما كان نكيرا، وأنزلنا بعون الله تعالى ما كان محذورا بالشرع محظورا، حتى تطهر ثوب الأمن من دنسه، وتجلى الوجه الخالص عن ملتبسه، واقتبس نور الحق من مقتبسه، وجرت الامور على ما عهدناه عليه من الاعتدال والقوام، بحكم ما أحكمه الإمام المهدي - رضي الله عنه في القضايا والأحكام، وإذا كان الافتيات في شيء من هذا ونحن على اقتراب، فكيف الأمر فيمن هو في حكم بعد عنا واغتراب.

فانظروا هذا ، وفقكم الله تعالى ، نظر أولي الألباب ، ولتسعوا جهدكم في رفع ذلك العمل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه على موجب الكتاب، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الرسالة السابعة عشر:

رسالة الفصول وهي رسالة طويلة جامعة لأنواع من المبادئ والأوامر والنظم الموحدية: كتبها أبو جعفر بن عطية عن أمير المؤمنين عبد المومن بن علي إلى أهل (بجاية) يوصيهم بإقامة الحدود ، وحفظ الشرائع ، وإظهار الحق، مؤرخة في الثالث من شهر ربيع الأول سنة **556** هجرية.

من أمير المؤمنين ، أيده الله بنصره، وأمده بمعونته ، إلى الطلبة الذين ببجاية، أدام الله كرامتهم، ووصل صونهم وحمايتهم . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فإنَّا نحمد الله إليكم الذي لا الله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه ورسوله.

والحمد لله على ما أمّدَّ به هذه الدعوة العظيمة، والكلمة العلِيَّة الكريمة، من الأضواءِ والأنوار، وقرن بعزائِم أوليائِها من الأخذِ بحَجُز العباد من التهافت في النار، وأحكم بإيمانِهم من معاهد الهُدى التي من استمسك بها

فقد فاز بعُقبى الدار، وأبان بهم معالمَ السنة المُستبينة الضوءِ الهاديةِ المنار، التي من سلك جَدَدَه فقد أمِن من العِثار، ووقَّف همَمَهم لديه من مراعاة أمور الدين في النائي والدَّاني من الأقطار.

نحمده حمد من اهتدى إلى أنه الموجودُ المُطلق الذي لا يَتقيَّد بالأمكنة والأعصار، الواحدُ الفرد الصمد المنزه عن الشركاء والأنظار، المتعالي عن صفات التخير والانتقال والعَجْز والافتقار، المحيطُ بجميع الموجودات إحاطة لا تحدها حِدَّةُ الأذهان، ولا تلحقُها دقائق الأفكار. لا إله إلا هو لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصار.

ونصلي على محمد نبيه والمُبتعَث من أكرم نِجار، والمؤيد بالمعجزات التي دحضت حُججَ الكفار، وخرقت مُستَمِرَّ العادة للعلم أنها فعلُ الواحد القهار، وأتت على وفق الدعوى ليُتبين بها صدقه على الأضرار، وحكمت في كل من لا يؤمنُ بها كل طريد الشَّبى ماضي الغرار، وعلى آله وصحبه السالكين في ذلك السنَن والمُجرين في ذلك المِضمار.

ونواصل الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى لما ارتفع العلمُ بقبضِ العلماءِ الأخيار، وأُعجِب كلُ ذي رأي برأيه من الصم البكم الَّرغام الأغْمَار، وقامت خطباؤهم بأفانين التضليل وضروب الاغترار، وقلَبوا الحقائق فظهر من التبديل والتغيير ما أخْفَى دينَ الله تعالى الذي تكفلَ له بالإظهار، وانبسط في البسيطة من المناكر ما لا يحتاجُ إلى إطالةٍ في تعديده من الوضوح والاشتهار، فجلّى بضياء حكمه ما استولى على آفاقها من الظُّلَم المشتدة الاعتِكار، وأبان بمُعجز علمه من العلم بالله تعالى ورسُله وبما جاءت به رسله ما كان في طيٍّ الخفاء والاستِتار، وعلَّم طرُق العلمِ بها التعليمَ الذي انتفع به أهلُ التيقن والاستبصار، وضرَح عن موارد الدين ما شمِلها من الشوائب والأكْدار، وأمده بالطائفة المنصورة المفتوح لها بصريح الوحي وصحيح الأخبار، كلُّ دان وشاسع من الأمصار، الوارثين علمَه والعاملين به والمتصرفين له ليبقى أمرُه العظيم على الدوام والاستمرار، إلى قيام الساعة وانقضاء هذه الدار.

فإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم كل خير جزيل، وأعانكم على امتثال أوامر التنزيل، وجعلكم جارين على حكم الكتاب والسنة في الدقيق من الأمور والجليل، من رباط الفتح عمره الله، والطائفةُ المنصورة محفوفةٌ من حفظ الله وكلاءته، ومكنوفةٌ من صَوْنه وحِمايته، وممنوحةٌ من إظهاره وإعلائه، ومخصوصةٌ من إرقائه وإسماعه، وممدةٌ من إضاءة زَنْدها وإيرائِه، في تسْنية مرامِها وإسْنائه، بما أنهضنا الله به إلى إحياء معالم السنة وإحكام أمْراسها، وتثبيت أركان الدعوة على وثيق أساسها، وتطهير الأمة من أدرانها وأدناسها، وتعليمها كيف تستضئ بمِشكاة الهداية وتعشو إلى نِبراسها، ليمشوا على السَّنن اللاحب، ويتقيدوا بالشرع المرتَّب الراتب، ويعملوا في أمر دينهم ودنياهم باللازم الواجب، فلا يلبسوا الهدى بالضلال، ولا يشوبون التحقيق بالإبطال، ولا يخلطون العمل بالرفض، ولا يُبَعضون الإيمان فيقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ليتخذوا بين الرشد والغي سبيلا، وليروموا في الصحيح الثابت تغييرا وتبديلا، إلى أن تخلُص قلوبهم من الرَّين، ويكون عندهم العلم والعمل متلازمين، والباطن والظاهر متطابقين، والقول والفعل متعارضين، ولا

متنافيين، والله المعين على إكمال هذا المقصد وإتمامه، والملئ بائتلاف جمع الجهات والأكناف على ما يؤثره من اتصاله وانتظامه.

ولما كان هذا الأمر العظيم إنما جاء في حين الفترة، وشمول الحيرة، وارتفاع العلم، وحلول الجهل، وانبساط الجَوْر، وانقباض العدل، وتملك الهمَج الرَّعاع، واتباع الهوى المُضل والشَّح المطاع، وقام به الإمام المعصوم، المهدي المعلوم - رضي الله عنه - عندما أزبد بحرُ الضلال وطمَى، واعتلى سلطانُ الكفر واستمَى، وتطاير شُر الأشرار وارتمى، وتفرقت في أنواع الأباطيل الآراءُ، وغيرت معالمَ السنة البدعُ والأهواءُ، والدين أجنبيٌّ غريبٌ، لا مناسِب له ولا قريب، ولا داعِي له ولا مجيب، وقد قنعَ أهلُ الدنيا في معارفِهم بمسوَّد الصحائف، مسطور الزخارف، لإماتةِ المعارف، وتطمينِ العوارف، وجر المطَارف، في صَون التالِد وجلبِ الطارف، فبَصر وعلِم، وثقِف وقوَّم، وأتقنَ وأحكم، ونوَّر ما أظلم، وأظهر ما استَتر وأبْهم، وأنْجد في تعليم العلم واتْهم، ثم أورث علمَه طائفَتَه فبثُّوه في البلاد، وأفاضوا نورَه على العباد، طورا باللين وطورا بالاشتداد، وحالا بالسياسة وحالا بالجهاد، وآونة بالمواعظ الحسنة

وآونة بالسيوف الحِداد، إلى أن ألقى الناسُ يد الاستسلام، وأظهروا الإجابة إلى دعامة الإسلام؛ فمن آمن منهم بهذا الأمر العظيم عن علم ويقين، وإخلاص مستبين، فهو يتقيدُ بقيوده، ويقف عند حدوده، ويجري على معروفه ومَعْهوده، ويبدو على ظواهره ما أكنَّه في سرائره، ويلوح على أساريره ما أسرَّه في ضميره، ومن حجَبه عن الإيمان به والإخلاص له حجابٌ، وحصَل في نفسه من الذي جاء به لبْس وارتياب، فهو باق في أحواله على المذهب الذميم، وعاكفٌ في أعماله على الرسم القويم، وطائفٌ بين أطلاله لا يبْرح ولا يريم، ويفتتِن بما كان ألِفه ويهيم، ويزيح في تلك المسارح ما أمكنه ويسيم، فتراه يتخطى الحدودَ ويتعداها، ويهمل الأوامر ولا يرعاها، ويغشى تلك المألوفات ولا يخشاها، ويساعد نفسَه الأمارة بالسوءة ولا ينهاها، ويُغفل مآلها ولا يخاف عقباها. ومن كانت هذه حاله فهو ممن لم يؤمن بالله ولا رسوله ولا بما جاءت به الرسل، ولا بالإمام المهدي الذي قامت عليه البراهينُ واتضحت في أمره السبلُ، بل هو متمادٍ على كفره وتجْسيمه، غير منتفع بتقويمه، ولا مُستبصر بتعليمه.

وبحكم ما ناطه الله تعالى بنا من أمور عباده، ووسَّده إلينا من نصر دينه وإنجاده، وقلَّدنا إياهُ من الوقوف على حماية باطنه وظاهره في أغوار العالم وأنْجاده، لم نزل نتعاهدُ أحوال الأنام، ونصل تَصَفُّحها على الليالي والأيام، ونقصدُ هذا المقصد بقوة واعتزام، ونأخذ في الكشف عنه بمواظبة والتزام، متبعين في العمل بالعلم أمرَ الإمام المعصوم الذي احتذى فيه حذو جده ـ عليه السلام ـ ، راغبين إليه تعالى في إعظام الأجر وإجزال المثوبةِ على القيام بهذا المقام.

لكن الناس مع مُواظبتهم بالتذكير، وملازمتهم بالتنبيه والتبصير لم يتركوا تلك الأفعالَ التي رسخت في الصدور، والملكاتِ التي استقرت في القلوب، والحالات التي انطوت على إلْفها الضلوع، وأبوا إلا ارتطاما في الغَي وارتباكا، وانكشافا في طواعية الشهوات وانهماكا، وخَلعا لعُذر النهي وانتهاكا، وإجراءً في مَهامه البطالة واستنانا، وتحليقا في جو الغواية وطيرانا، وإغفالا لما أحدق بهم من أمر الله تعالى ونسيانا.

فنهضنا إلى معاهدة التفَقُّد بعزم قُرعت له الظَّنابيبُ، وجُري ٍفيه إلى مد القصرِ عن شأوه الجُردِ السراجِيب، وجعلناه تعاهدا عاما في البعد والقرب، ونظرا شاملا ينتظم حاشِيتي الشرق والغرب، لتأخذَ الجهاتُ حقها من الضبط ، وتتزنَ الجنباتُ بميزان العدل والقسط، وتستقيمَ البريةُ على قانون الانتظام والربط، فتكون العهود محفوظةً ، وسطوات الله تعالى بمُخالفي أمره لمُراقَبةٍ ملحوظةً.

وأبتدئ بأول مباني الإسلام فاخذوا الناس بعلم التوحيد الذي هو أساسُ الدين ومبناه، وروحه ومعناه، والقاعدة التي لا يثبتُ عمل دون تأصيلها، والرابطة التي لا يُقبل دين دون تحصيلها؛ فلا سبب لمن لم يُمسك بسببه، وقد بني وجوب العلم بالفرائض على وجوب العلم به، وهو إثبات الواحد وبقي ما سواه، بتقييداتٍ في الشريعة لا يكفي معها إطلاقُ اللفظ دون تحقيق معناه؛ وذلك أن يُعلم على وجه حدِّه، ليكون عن علم لا عن ضده، وعن يقين لا عن شك، وعن إخلاص لا عن شرك، وأن يقوله مع العمل ولا يَتَّكل.

ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغَربي (يقصد اللسان البربري) ويتكلمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات ويحفظوه ويّقُصُّوه، ويُلازموا قراءته ويتعهدوه،

ويؤمرُ طلبة الحضَر ومن في معناهم بقراءة العقائد وحفظها، وتعاهدها على سبيل التفهم والتبين والتنبه والتبصر.

ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها: (أرشدنا الله وإياك) وحفظها وتفهمها، واشملوا في هذا الإلزام الرجالَ والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجه عليه التكليفُ، إذ لا يصح لهم عملٌ ولا يُقبل منهم قول دون معرفة التوحيد؛ فمن لم يعرف المُرسَل لم يصدق بالمُرسِل ولا بالرسالة، ومن حصَل على هذه الحالة فقد تعثَّر في أذيال الضلالة. فإن لم يبادر إلى التخلص منها، والانفصال بالعلم عنها فقد وجب عليه حكمُ الكتاب، ولا عنَت في إراقة دمِه لا محالة.

واخذوا بإقامة الصلاة التي هي الكَتْب الموقوفُ على المؤمنين، والحُكمُ المثبوت على من آمن بهذا الدين، والناهيةُ عن الفحشاء والمنكر على ما ورد

في الكتاب المبين، ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاةَ فهو مَمحوٌّ من ديوان المؤمنين، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من الوظائف والقوانين، وتاركُها ميت في عداد الأحياء، لحُشاشة تقضي عند القضاء أمدَ الإمهال والإملاء.

فخذوا من قبلكم بإقامة الصلاة على ما شرعت، وأدائها بحسب ما فُرضت، وخذوا العوام ومن في الديار بحفظ القرآن لتتم صلاتُهم ويَكْمل عملُهم، ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر إلى أداء ما فُرض عليه منها فأجله للحين مُتاح، وقتله بحكم الكتاب والسنة واجب.

وخذوا بإيتاء الزكاة وبالكشف عن مانعيها وتشخيص مُمسِكيها أو النزر اليسير منها؛ فالزكاة حقُّ المال والجهاد واجب على من منعَ منها قدْرَ العقال، فمن ثبت منعُه للزكاة فهو لا حق بمن ثبت تركه للصلاة، فمن منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها، ومن منع عِقالا فما فوقه كمن منع الشرع كلَّه.

وامروا بالنظر في الرُّبوب (نوع من الخمر) وتمييزِها والهجوم على بائعيها ومدمني شربها ومستعمليها، فيراق مُسكرها، ويقطع منكرها، وليعمد إلى من عَمِل المُسكرَ الحرام عامدا، وشَرِبه مُدمنا عليه ومعاهدا ، ولم ترُعه الحدود،

ولم تقيده القيودث، ولم يعظه الاعتبارُ، ولم ينفعه الادكارُ، فيُمحى أثره،

ويحذفُ خبرُه، فالخمرُ أم الكبائر وجُماع الإثم وكاسفةُ شمس العقل،

والبلاغة على كل قبيح من الفعل، والفاتحة كل مُرتِجٍ من أبواب العصيان، وهي

رجس من أعمال الشيطان.

وامروا بالكشف عن التلصُّص والجِراية، والتولُّج في مكان الريب والغواية،

والاجتماع على سير الجاهلية من الملاهي على فنونها وأنواعها وضروبها

واختلاف آلاتها وما يتبعها من المناكر الناشئة عن أصل الجهالة والأفعال

المنافية للشريعة الصادرة على أهل (الزراعة) والضلالة من الرجال

المفسدين والغواة المُضلين، ومن النساء المفسدات المتفننات في طرُق الغوايات؛

فاكشفوا عن هذه الأصنافِ وأثِيروهم عم مكانهم، ونقِّبوا عليهم في مَظانهم،

فمن شُهد عليه منهم بشهادة صحيحة سالمة من الهوى والظِّنة باستصحابِ

حاله، وتماديه على الإحضار في محلِّ باطله ومُحاله، فيُحَكَّمُ كتاب الله ـ جل

اسمه ـ فيه.

وليكشف عن الذين يَغرمون الناس ما ليس قِبلَهُم ، ويأكلون بالباطل أموالهم، وعن أهل العناد والتقاعُس والإخلاد والتثبُّط الذين إذا دُعوا إلى الجهاد، ونودوا إلى الصلاح والرشاد صُمُّوا عن النداء، وتلوَّموا في إجابة الدعاء، وألقوا المعاذير المعربةَ عن العناد، والناطقةَ عن الضمائر الممتلئة بسوء الاعتقاد، وعن القبائل الباقية على سير الجاهلية من الهرّج فيما بينهم والقتل والفساد والخبَل والانقياد إلى سلطان الجهل، والخروج عن قانون الحق وضبط الأمر، وعن أهل النفاق والتدليس الناطقين بما لا يعلمون، والقائلين بما لا يفعلون. فإذا تعينوا على التحقيق فليمضِ عليهم حكم الله تعالى الذي أمر به فيهم.

وقد أنفذنا إليكم ـ وفقكم الله مقاصدكم، وعم بالتقوى معاهدكم ـ نسخةَ كتاب كريم، صدر عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم ـ رضي الله عنه ـ مشتملٍ على جوامع الكلم، ومُنطق على رواتِع الحكم، لم يغادر في المعنى الذي تضمنه مُتَرَدِّما، ولم يوجد متأخرا عن الوقوف دون مقتضاه ولا مُتقدما، ولم يوسع

متربصا في البِدار ولا متلوما، فيه الملاذ والمعاد، وعليه الاعتماد والاستنادُ، وإليه المرجع والمفزع.

وأنتم تقفون منه على حكم الله تعالى في القوم الذين ذكرهم ممن لا دين له ولا أمانة ولا عهد ولا ميثاق، المدعين للحق بالأقوال ، مع التمادي على التضييع بالأفعال، وإظهار الاستماع والقبول في الظاهر، واتباع الجهل والهوى في الباطن.

وتعملون ما جعل العمل عليه في أعداء الدين والعلم وما حكم به فيهم، ولا معدِل لنا عن حكم سر البيت المتلو في آيات الله والحكمة، المستخرج الحكم من مِشكاة النبوة ومرآة العظمة الذي انتظم به الأمر على سنَن الهدى، واستقام على نهج التقوى، فمن عانده أو خالفه أو ضادَّه أو كابره أو عصاه أو ناوأه أو جهله وأهمل أمره، فقد حاق به الردى، فالانقياد لما يقضى به واجب والاستمساك بأمره حتّم، والرجوع إليه في أمر الدين والدنيا فَرْض لآن قضاءه وأمره هو قضاء ربه وأمره وإرادته وحكمه ، وقد حكم - رضي الله عنه - هذا الحكم فيمن هاجر إليه أول مرة وأتاه عند طَمْوِ البحر واتصل به سلطان

الهرج، ونزع إليه عند الابتلاء والمحنة، واضطرام نار الفتنة، لما أنَس منهم النفاقَ وعلم فيهم فساد الباطن، وشهِد منهم مكابدة الدين، والدخول فيها من غير يقين، وفتحَ باب جهادهم ومَحْوِ آثارهم، وجعله أهم وأولى من جهاد الكفرةِ المجسمين.

فكيف بمن أتى بأَخَرة عند استواء شمس الهُدى على الآفاق، وإخفائها خيالات أهل العتو والاستكبار والمُرود على النفاق، ممن جاء مخافة البِيض الرِّقاق، وأتى عند بلوغ النفس إلى التَّراق، وخاف من يوم عصيبٍ يُكشف فيه عن ساق، فحينئذ أصْحب القياد وأذْعن في المَساق، وفيهم ممن ليس عقْده على الصحة والوثاق، ولا أفعاله مرضيةُ المقصد ولا جاريةٌ على الوفاق، فإمضاء هذا الحكم فيهم، بعد تحقق تلك الأوصاف عليهم أدخلُ في باب الوجوب والاستحقاق.

وإن هذا الأمر العظيم، وإن كان أوسعَ الأيامَ عطفا، وأنالَهم رِفقا ولُطفا، لا يصل من أوجب الدين قطيعتُه، ولا يحفظ من رتب الحق إذالته، ولا يرخي في

الطَّول لمن استن في رعْي حِمى السُّنن، ولا يستمر على المهل لمن زاغ عن النهج والسَّنَن.

فتأملوا من اشتمل عليه كتابُ الإمام المعصوم ـ رضي الله عنه ـ الذي هو هدى وتبيانٌ، ونور وبرهان، واهتدوا بهدي ٍمن الهداية مخصوصة، واعتصموا بحبل من العصمة عليه منقولة منصوصة، فلا مطمع من الهداية إلا منه، ولا وجهَ لأخذ العلم ومعرفة الحقيقة إلا عنه ومن لدُنه.

وها نحن نقصد قصده و(نتحداه)، ونجاهد على إمضاء ما انطوى عليه معناه، وعلى هذا الحكم مضى العمل في المواضع التي نحن بصددٍ منها بعد أن مُيزوا بمثواهم، وعُرف المجرمون بسيماهم، وتبينَ كل منهم بما احتقب، وشُهد عليه بما اقترفَ وبما ارتكب، وقد فضح الله تعالى منهم جماعةً تعينوا بصحيح الأعلام، فأُخذوا بالنواصي والأقدام، وجُرعوا (مصقر) كأس الحمام بشَبَى الذوابِل وجدِ الحُسام، وصُيروا عبرة لأولي الاجتراء على ارتكاب المحارم والإقدام.

فامضوا - وفقكم الله - في أقطاركم على هذا النظام، واحكموا في هذه الأصناف بمثل هذه الأحكام، واحذوا حذو هذه الأفعال في طَحْر القذى عن طِرْف الإسلام؛ فمن تحقق عندكم بترك الصلاة، ومنع الزكاة، وإتيان المُحرمات، والانهمالِ في المحظورات، من المفسدين والمفسدات، واستصحابِ تلك الأحوال المقررات، أو واحدة من الأفعال المشروحة المبينات، من غير أخذٍ لهم بقولٍ ذي هوى وغَرَض، ولا بشهادةٍ يَتعرض فيها من الظِّنّة أدنى عرض، فإذا صح التبيين، وصدق التعيينُ فليُؤخذوا بما احْتَقبوا، وليُسألوا بما كسبوا، وليُقابلوا عن فِعالهم مقابلةَ من لا تَصْرِفُه عن الحق الصوارفُ، ولا تعطِفُه عن امتثال أمر الله العواطفُ، بل يَمضي في إمضاء الحق بأشد العزائم ، وليعمل فيه عملَ من لا يتقي في الله لومة لائم، إلى أن يستمرَّ أمرُ الله تعالى على إذلاله، ويبدو مُحيًّا الحق سافرا عن جَمَاله، ويستقيمَ البشَرُ على الجَدَد المَهْيَع، ولا يَعْدِلون عن سُبل الاستقامة على الصراط السوي في المرعى والمشْرع، والمقْصد والمنْزع، بعون الله تعالى.

ولتقدموا طلبةً أمناءَ من قبِلكم يُعلمون الناس قراءة توحيدهم وحفظَه وحفظ أُمِّ القرآن وما تيسر معها من السور، ويأخذوهم بمُداومة ذلك ومُعاهدته وحِفظه، وليكونوا من الذين يُراقبون ويُحافظون، ولا يراعون في حقوق الله تعالى ولا يُداهنون. واحذروا المداهنَة وحَذِّرُوها فإنها صارِفةٌ عن الحق، مُزيغةٌ عن نهج الصدق.

وليكن جميع ما تأتونه وتدرونه، وتقدمونه في هذا المقصد وتؤخرونه جاريا على حُكم الإمام المعصوم المهدي المعلوم - رضي الله عنه - مستندا إليه، ففعلُه هو الذي نقتدي به، ونستمسِك بسببه، ونُمضيه على وجهه، ونُجريه على رسمه، فلا نجاة إلا اتباعُه ولا أمَنة إلا في الاستمساك بأقواله وأفعاله - أعانكم الله على ما تقصدونه من ذلك وتَتَحرونه، ووفقكم فيما تأتُونه من ذلك وتتولَّونه، فذلك بيده -

وليكن في هذه الأصناف القومُ الذين يكّسرون الدعوةَ ولا ينقادون إلى ما يجب عليهم من الحُكم، والقبائلُ التي تُعادي عن نصحٍ لهذا الأمر العظيم،

ووقفٍ في استخراج حقوق الله، وأبانَ خبايا أهل التلبيس حتى أنَّهم يَنصِبُون لهم المكايد، وليمض عليهم هذا الحكمُ فهم أعداء الله ورسولِه.

وليكن هذا القصدُ عاما شاملا منتظِما للحاضر والبادي، والنائي والداني، من الذكور والإناث، والأحرار والعبيد، وسائر أصناف الناس لا يختص قوما دون قوم، ولا جهة دون أخرى.

والله تعالى يوفقكم، ويتولى بمنه عونَكم.

وكتب في الثالث من ربيع الأول سنة ست وخمسين وخمسمائة.

هامش : الكلمات التي وضعت بين قوسين فيها شك من عندي.

الرسالة الثامنة عشر:

وهذا مقتطف قصير وصلنا من رسالته الاستعطافية مع بعض شعره:

« ... تالله لو أحاطت بي خطيئة ، ولم تنفكّ نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لآدم من السجود، وقلت: إن الله لم يوح إلى الفلك إلى نوح، وبريت لقرار ثمود نبلا، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين، وقبضت قبضة من الطّير من أثر الرسول فنبذتها ، وافتريت على العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوة، وذممت كل قرشي، وأكرمت لأجل وحشي كلّ حبشي، وقلت إن بيعة السّقيفة لا توجب لإمام خليفة، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتقلت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة، وغادرت الوجه من الهامة خضيبا، وناولت من قرع سنّ الخمسين قضيبا، ثم أتيت حضرة

المعصوم لائذا، وبقبر الإمام المهديّ عائذا. لقد آن لمقالتي أن تسمع، وأن تغفر لي هذه الخطيئات أجمع مع أنني مقترف وبالذنب معترف:

الطويل

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا ... بحمل قلوب هدّها الخفقان

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وكتب مع إبن له صغير: البسيط

عطفا علينا أمير المؤمنين، فقد ... بان العزاء لفرط البثّ والحزن

قد أغرقتنا ذنوب كلّها لجج ... وعطفة منكم أنجى من السّفن

وصادفتنا سهام كلّها غرض ... لها ورحمتكم أوقى من الجنن

هيهات للخطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارته رحماكم من المحن

من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشا من الزمن

فالثوب يطهر بعد الغسل من درن ... والطّرف ينهض بعد الرّكض من

وسن

أنتم بذلتم حياة الخلق كلّهم ... من دون منّ عليهم لا ولا ثمن

ونحن من بعض من أحيت مكارمكم ... تلك الحياتين من نفس ومن بدن

وصبية كفراخ الورق من صغر ... لم يألفوا النّوح في فرع ولا فنن

قد أوجدتهم أياد منك سابغة... والكلّ لولاك لم يوجد ولم يكن

ولما بلغت هذه القصيدة إلى عبد المؤمن وقع عليها : الآن وقد عصيت قبل، وكنت من المفسدين.

ولأبي جعفر بن عطية يبكي نفسه حيث نكبه عبد المومن:

أنوح على نفسي أم انتظر الصفحا فقد آن أن تنسى الذنوب وات تمحى

وها أنا في ليل من السخط حائر ولا أهتدي حتى أرى للرضا صبحا

قال أبو جعفر بن عطية: دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره، وتفتقت أزهاره، وتجاوبت على أغصانها أطياره، وتكامل من كل جهة حسنه وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان، فسلمت وجلست وجعلت أنظر يمنة ويسرة متعجبا مما أرى من حسن ذلك البستان فقال لي: يا أبا جعفر أراك كثير النظر الى هذا الأبا جعفر المنظر الحسن هذا قلت نعم فسكت عني فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر بعرض العسكر آخدي أسلحتهم وجلس في مكان مطل وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكثيبة إثر كثيبة لا تمر كثيبة إلا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح وفراهة خيل وظهور قوة فلما رأى ذلك التفت إلي وقال يا أبا جعفر هذا هو المنظر الحسن لا ثمارك وأشجارك.

خرج الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي مع وزيره أحمد بن عطية متنزها إلى بعض بساتين له بمراكش ، فمر في طريقه بشارع من شوارع المدينة، فإذا بطاق في دار عليه شباك خشب قد قابله منه وجه جارية كأنه

الشمس الضاحية قد بادرت الطاق تنظر إليه، فنظر إليها عبد المومن فأعجبه حسنها، وحلت من قلبه كل المحل، فقال ارتجالا :

قدّت فؤادي من الشباك إذ نظرتِ

فقال ابن عطية:

حوراءُ ترنو إلى العشاق بالمقلِ

فقال عبد المومن:

كأنما لحظُها في قلب عاشقها

فقال ابن عطية:

سيفُ المؤيد عبدِ المؤمن بن علي.

فطرب عبد المؤمن واستحسن إجازة وزيره ، فخلع عليه وأمر له بمال جزيل.

إشتهر في كتب الأدب والتاريخ ، قول الشاعر في مطلع قصيدة يمدح بها هذا الملك:

ما هزَّ عِطفَيه بين البيض والأسل مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن علي

وهذا من الشعر الذي تطرب ألفاظه أيما طرب ، ويسعى الشعراء إلى مثله فلا يتفق لهم إلا لماما !